سلام الراسي







سلام الراسي

الأدب الشعبي ٨
أدب الناس للناس

جود من الموجود



الطّبعة الأولى
١٩٩١



بناية نوفل ـ شارع المعماري
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ ـ ٣٥٤٣٩٤ ـ تلكس ٢٢٢١٠ نوستن
ص.ب ١١/٢١٦١ ـ بيروت ـ لبنان

مقدّمة





كِنَّا وكانوا حولنا الجلّاسْ — مْتجانسين بْوحدة الإحساسْ
مِدري الزمانْ الأول تْحوَّلْ! — مِدري أنا تحوَّلت!.. مِدري الناسْ

البَابُ الأول:

النّاس عَلى دِين ملوكهِم

آمر فهيم ومأمور غشيم

دمّر زلزال ١٩٥٦ عشرات القرى في لبنان، فأنشأ رجل الأعمال الكبير أميل البستاني، الذي كان وزيراً للأشغال يومئذٍ، إدارة حكومية خاصة لإعادة تعمير القرى المنكوبة سُمّيت «مصلحة التعمير». وجئت أطلب لي وظيفة فيها فسألني البستاني عما إذا كنت في زماني قد شغلت أي وظيفة حكومية، أو كان أحد أهلي «ابن حكومة».

وخطر لي أوّلاً أن أُلفّق لي وظيفة حكومية سابقة مزعومة تؤهلني ولوج مصلحة التعمير الحكومية، فأقول، مثلاً، انني شغلت يوماً وظيفة «تحصيل دار»، أو كنت فيما سبق شاويشاً في سلك الدرك، لكن بداهتي غلبت نباهتي فقلت: «الحقيقة، يا سيدي هي أنني ابن قرية خالي الذهن من كل ما هو حكومي».

وشد ما كانت دهشتي عندما رأيت البستاني يوافق، بدون تحفظ على تعييني موظفاً في مصلحة التعمير وتكليفي بأعمال الأمانة فيها.

وحدث أنني رافقت البستاني، يوماً، إلى المناطق المتضررة، ووصلنا إلى قرية «كفرجرّة» في منطقة جزين، حيث وجدنا الكميونات المحمّلة مواد البناء من مصلحة التعمير إلى المتضررين من أبناء القرية، تفرغ حمولتها بعيداً عن القرية لعدم وجود طريق إليها، فارتجل البستاني أمراً إليّ بشق الطريق.

فامتثلت للأمر وأحضرت في اليوم التالي جرافة وبدأت أعمال الشق، دون مراعاة الاجراءات القانونية ـ لأنني كنت أجهلها ـ آخذاً في طريقي كل ما اعترضني من أشجار وجدران وأملاك خاصة.

ولم يمضِ أيام على إنجاز شق الطريق حتى تبلّغت ثلاثة أوراق جلب من محكمة جزين تفيد أن ثلاثة من أهل كفرجرة يريدون مقاضاتي بشأن الأشجار الخاصة التي قطعتها وسائر الأضرار التي أحدثتها في أملاكهم الخاصة.

حملت أوراق الجلب ووضعتها أمام اميل البستاني وقلت له إنني نفذت أمره وفتحت الطريق إلى كفرجرة دون مراعاة الاجراءات القانونية لأنني غشيم أجهل القوانين. . .

فقاطعني البستاني قائلاً: «ولأنك غشيم كلفتك بهذه المهمة، لأن شق الطريق، بالطرق القانونية، يستوجب اجراءات قانونية طويلة الأمد، لذلك لا يمكن تنفيذ هذه المهمة العاجلة إلا بواسطة رجل غشيم مثلك».

ثم طيب البستاني خاطري وقال: «أنت تعرف جان عزيز، نائب جزين الجديد، اذهب واعرض الأمر عليه!».

كان لما يمضِ بعد على فوز جان عزيز بالنيابة عن منطقة جزين أكثر من شهر، وكنت قبل ذلك قد تلقيت من البستاني كلمة السرّ في المعركة الانتخابية، وهي وجوب بذل الممكن، بواسطة امكانيات مصلحة التعمير المتاحة لي، لإنجاح جان عزيز، إكراماً لخاطر مرجع روحي رفيع. فبذلت الممكن، ونجح جان عزيز، فهنأت نفسي، لأنها كانت المرة الأولى، وربما الأخيرة التي نجح فيها مرشح وقفت إلى جانبه، من بعيد أو من قريب.

في طريقي إلى جزين عرجت على صديقي الخوري شكر الله فرنسيس في قرية لبعا، وعرضت عليه قضية أهل كفرجرة، وقلت انني متوجه إلى جزين لمراجعة النائب جان عزيز بهذا الشأن. فقال الخوري شكر الله: «كان الله في عون جان عزيز، صار نائباً وصارت عنده هموم كثيرة، فلا تزد عليه همًّا جديداً، والرأي الأصحّ هو أن تتدبّر الأمر بنفسك، والمثل يقول: «طِمْ الجوره وخلّي الدعوى مستوره!»».

وبما أنني كنت قد أصبحت «ابن حكومة»، ولا يليق بابن الحكومة أن يحفل بالأمثال ولا أن يقبل نصيحة، حتى ولو كانت من خوري مفضال، لذلك ودعت وانصرفت. . . وحدثت نفسي في طريقي إلى جزين، قلت إن جان عزيز

شاعر ومفكر ومحدّث رصين، ووعدت نفسي بمحادثة أدبية رائعة معه، قياساً على محادثات سابقة.

كـان منزل النـائب الجديـد مكتظاً بـالناس من مختلف الجهات، وهو مشغول معهم على جميع الجبهات. كانت هنالك جماعة تطالب بمدرسة للبنات، وجماعة أخرى تطالب بحل بلدية، ورجل يطلب وظيفـة لابنه، ثم هنـاك رجلان يتجادلان بدون انقطاع، وامرأة تصـرخ من وقت إلى آخر بقولها: «يا ويلهم من الله!» وكان هنالك إلى جانب جان عزيز، كاهن فذ يتبوأ كرسيًا مميزاً وهو لا يفتأ يسأل كل عشر دقائق: «وشو كان جواب سيدنا؟».

ودخل بعدئذٍ وفد يتقدمه رجـل عليه مسحـة من وقار، فاستنتجت أنه ولا شك مختار. وتمنى على النائب الكريم شق الطريق إلى قرية «الشواليق»، تنفيذاً لوعد قطعه لأبناء القرية، في معمعان المعركة الانتخابية، «ومن وعد وفى».

فترك جان عزيز سائر القضايا معلقة وتفرغ إلى معالجة القضية الجديدة، قال إن شق الطريق إلى قرية الشواليق يحتاج أولاً إلى فتح اعتماد. وفتح الاعتماد لا يتم إلا عندما توضع موازنة السنة القادمة، فإذا تأمن الاعتماد في موازنة السنـة القادمة، يتم إعداد دراسة هندسية للطريق. ثم يتم تخمين العقارات المنوي استملاكها، ثم استصدار مرسوم جمهوري



اميل البستاني يهنئ جان عزيز بالنيابة

يخول الدولة حق استملاكها. . وهذه الاجراءات تستلزم سنتين أو أكثر قبل مباشرة شق الطريق. . .

كان العرق يتصبب من جبين النائب جان عزيز وهو يحاول أن يقنع الجماعة بصعوبة اتخاذ القرار بشأن شق الطريق إلى قرية الشواليق، فقلت في نفسي، لو كان اميل البستاني هنا لارتجل أمراً إليّ بشق الطريق إلى قرية الشواليق، فأتولّى شقه بلا وجل، وهل يخشى الغريق من البلل.

ونشأت عندي، آنذاك، قناعة أن لبنان لا يُصلحه إلا «آمر فهيم ومأمور غشيم» مثل اميل البستاني وسلام الراسي، وهنأت نفسي على اكتشاف هذه الحقيقة، وخرجت، كما دخلت، لا سلام ولا كلام.

في طريق عودتي عرجت مجدداً على الخوري شكر الله وقلت له: «أنا شققت الطريق إلى كفرجرة في يومين، والنائب جان عزيز يحتاج إلى سنتين ليشق الطريق إلى قرية الشواليق. . فلعل الأمثال الشعبية تكون أحياناً، أنفع وأسرع، في تنفيذ الأشغال، من القوانين الحكومية».

وطلبت من الخوري شكر الله أن يفيدني كيف يكون طمّ الجورة وإبقاء الدعوى مستورة.

قال: «أهل كفرجرة فقراء باغتهم الزلزال فازدادوا فقراً، وأنت باعك طويل في مصلحة التعمير، وفهمك كفاية».

حَسَبُ السُّوق، سُوق

كان القرويون، في لبنان، قديماً، لا يعرفون الحكومة إلا في أشخاص رجال الدرك. ورجال الدرك - بالإضافة إلى جُباة الضرائب - هم «أبناء الحكومة»، في مفهوم القرويين. وكان الدركي والجابي مبغوضين في نظر القروي، لأنهما لا يأتيان إلى القرية إلا «للتنكيل أو للتحصيل»، كما يقال في جنوب لبنان.

وحدث أنني ذهبت يوماً، إلى قرية بيصور - جزين، في مهمة حكومية، خلال عملي في وزارة الأشغال العامة، حيث استفردني كلب جعاري قليل التهذيب تخلصت منه بصعوبة.

وجاء مختار القرية يعتذر مني عن سوء سلوك الكلب نحوي، قال: «. . .ولكنك، ولا بد تعرف أن الكلب، في بلادنا، لا ينبح إلا على النوري والخوري وابن الحكومة، لأنهم «غير شكل» عن سائر رجال القرية».

كان كلب قرية بيصور، إذاً، على حقّ، لأنني كنت يومئذٍ، موظفاً حكومياً، غير شكل، مثل النوري والخوري والدركي على حدٍ سواء.

وحدث يوماً، بينما كنت أتلكّأ أمام مدخل وزارة الأشغال، بانتظار زميل لي، لنمضي معاً في مهمة حكومية إذ برجل من سماسرة انجاز المعاملات في الإدارات الحكومية، دنا مني وقال: «هيئتك ابن حلال، من الجنوب، ولا بد أن تكون لك حاجة في الوزارة وتحتاج إلى مَن يساعدك في إنجازها. . .» ثم انتبه الرجل وراح يعتذر مني قائلاً: «سامحك الله! هيئتك ابن أوادم أكثر من اللزوم».

قلت، يا سبحان الله! أفيمكن أن يكون كلب قرية بيصور أفهم من هذا الرجل في معرفة أبناء الحكومة من أبناء الأوادم! وحاولت بعدئذٍ أن أصير ابن حكومة، ما دمت آكل من خبزها وأعيش في عزّها، لكن الطبع غلب التطبّع.

* * *

وكما يصير اللبنانيون أبناء حكومة، أو أعداء حكومة، حسب واقع الحال، فقد يصير أحدهم «صهر حكومة» في أحسن الحالات، كما حدث لنسيب لنا كان دائم التهجّم على الحكومة، ثم انقلب فجأة، وصار من المسبّحين بحمدها، حين تزوج إحدى المستكتبات في وزارة الداخلية. صار الرجل صهر الحكومة، ومَن يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه.

وبدا لنا، بحكم الاختبار، أننا بحاجة إلى حاكم عبقري يبتكر لنا طريقة يصير بموجبها، جميع اللبنانيين يقبضون من الدولة، إمّا لكونهم من أبناء الحكومة. . . وإما بصفتهم من

أصهار الحكومة، فتقوم حينئذٍ، علاقة المواطنين بالدولة على أسس الخبز والملح. . . ثم اكتشفنا أن المسؤولين كانوا قد بتكروا وسائل شتّى لاكتساب ولاء المواطنين، ومنها ما يسمّى «نظام التنفيعة».

والتنفيعة هي صفقة أشغال بالأمانة إلى متعهد محسوب على أحد كبار المسؤولين. كما ابتكروا، كذلك، طريقة لاسترضاء الزعماء، بتعيين بعض أتباعهم، أُجَراء في مختلف الإدارات، بحيث يداوم هؤلاء في خدمة أسيادهم، ولا يحضرون إلى الإدارة، إلا عند قبض الاستحقاقات، لينتفعوا من الدولة، ولا تنتفع الدولة منهم، بسوى استرضاء زعمائهم. لذلك كنا نسمي هذه الفئة من الأجراء «أُجراء تنفيعة»، وهم الفئة الأدنى في سلسلة رتب ورواتب ملاكات الدولة.

ولعل أشهر أجراء التنفيعة، في وزارة الأشغال، كان أبو سعد الذي كان، خلافاً لسائر الأجراء، يأتي بكامل أناقته ولياقته، متمنطقاً بمظاهر كرامته، ويأخذ ويعطي مع الموظفين، ويعرض خدماته على الجميع، حتى لكأنه من كبار أبناء الحكومة.

وكان يخبّىء لي بعض الحكايات، لبعض المناسبات، ويستعمل المفردات والمصطلحات ومحطات الكلام التي أستعملها أنا في سياق الحديث. وقصارى القول أن الرجل كان صديقي.

* * *

واكفهرّت أجواء الحرب في لبنان. وتتابعت الانفجارات والمناوشات، وارتفعت الحواجز على الطرقات، وراجت عمال الخطف على الهوية، واندلعت حرب الإشاعات.

وجئت يوماً أتفقّد مكتبي في مديرية المباني، بعد انقطاع بضعة أيام، بسبب تردّي الأوضاع، فلم أجد في المديرية سوى أربعة موظفين هم: حارس وحاجب وسائق، بالإضافة إلى أخينا أبي سعد، الذي كان يتابع حديثاً فرغ لتوّه من تقديم مقدمته وأوغل في التفاصيل، فقطع حديثه برهة، ورحب بي وقال: «لا يوجد في المديرية غيرنا نحن الأربعة، والرأي أن تجلس معنا، إلى أن ننهي حديثنا، ثم أرافقك في عودتك إلى بيتك، لكي أضمن سلامتك!».

قلت: «طريقَ عودتي آمن على ما أظن».

قال: «لا لا، أخوك أبو سعد أخبر منك بمعابر أولاد الحرام في هذه الأيام». فامتثلت وجلست.

فاستأنف أبو سعد حديثه قال: «. . .وترك ابن عمي كار الحلاقة بسبب قلّة الحالقين وتعاطى مهنة صنع المناقيش، لكن زوجة ابن عمي، ما لبثت أن زهدت به، لأن مهنة صنع المناقيش، ليست من المهن المحترمة، في هذه الأيام غير المحترمة. فطلق ابن عمي. . . صناعة المناقيش وتعاطى مهنة تهريب الأسلحة. . ولما سألوه لماذا هذا التبديل والتغيير، قال: «حسب السوق، سوق!».

* * *

ومرت سنوات على ما تقدم ذكره، كنت في أثنائها قد بلغت السن القانونية لنهاية الخدمة، في الوظائف الحكومية، فأحالتني الدولة على التقاعد. . فقعدت.

وبينما كنت أتلطّى يوماً، في شارع فردان، في رأس بيروت، وقفتْ إزائي سيارة فخمة يقودها سائق يرتدي كوستيماً مميزاً، وإلى جانبه رجل مسلح، وإذا بالأخ أبي سعد، الذي كان يحتل صدر السيارة، يهبط ويتوجّه إليَّ معانقاً عناق الأحباب بعد طول غياب.

وقبل أن يهدأ روعي، لهول المفاجأة، سألني الأخ أبو سعد، بدون أي تكلّف، عما إذا كنت بحاجة إلى أيّ «تنفيعة»، هذه الظروف السيئة على كرام الناس، ما دامت الحكومة صرفتني من خدمتها، قال: «ـ حِطّ عينك على أي تنفيعة الدولة، وأخوك أبو سعد يكون في خدمتك، لأن الصديق الضيق!».

الخبر اليقين عند جورج حيمري

كان جورج حيمري المستشار الحكيم الأمين في غرفة رئاسة الجمهورية اللبنانية، وكان الرئيس ـ كل رئيس جمهورية ـ لا بدّ أن يستشيره في تعيين كبار الموظفين.

لكن حدث أن الرئيس فؤاد شهاب تسرع يوماً وأسند إحدى الوظائف الحساسة إلى موظف محظوظ بدون استشارة مستشاره الحكيم الأمين. وحدث أن الموظف هذا كان واسع الذمة ما لبث أن تورط في بعض المخالفات والتجاوزات. وشعر الرئيس شهاب بالخيبة فشكا الأمر إلى جورج حيمري الذي اختصر رأيه إلى الرئيس شهاب بحكاية، قال:

ـ يُحكى أن فلاحاً، في عهد الأمير بشير الشهابي، جلس يتغدّى في حقله، قرب الطريق، ومرّ به رجل وحيّاه. فردّ الفلاح التحية ودعا الرجل إلى المشاركة في الطعام، حسب التقاليد القروية. فتقدم الرجل وزوّادته بيده فلشها قرب زوّادة الفلاح، وإذا زوّادة الرجل مليئة بأفخر أنواع الطعام، فأكل الفلاح وشكر وسأل الرجل عمّن يكون.



الرئيس فؤاد شهاب مع المستشار الحكيم جورج حيمري

قال الرجل إنه واحد من عبيد الأمير بشير.

قال الفلاح لنفسه، لا بدّ أن يكون الأمير بشير عليماً وخبيراً في شؤون الناس حتى استطاع أن يختار له عبيداً على مثال هذا العبد الكريم المهذّب.

ورجع الفلاح في المساء إلى بيته، وحدّث زوجته عن عبد الأمير بشير وزوّادته الفاخرة، فقالت: «يا سواد وجهي! لم يكن في زوادتك، اليوم، غير بصلة وفجلة وقليل من الزيتون، ولا بدّ أن يكون الرجل قد تكلم سوءاً بحقي، لأن احترام المرأة لزوجها ـ كما كان يقول والدي ـ هو في احتشامها.. وتنويع طعامها. غداً سأجعل زوّادتك فاخرة حتى إذا مرّ بك عبد من عبيد الأمير بشير وتغدّى معك، احترمك واحترم زوجتك. فلا تنس إذاً، أن تذكرني بالخير قدامه».

وجاء الفلاح في اليوم التالي إلى حقله وجلس عند الظهر يتغدى في المكان ذاته، وفلش زوادته أمامه: أقراص كبّة، وبيض بقاورما وباذنجان متبل ومربى السفرجل وغير ذلك، وإذا برجل يعبر على الطريق. قال الفلاح، لعلّ الرجل من عبيد الأمير بشير، وبادره بقوله: «تفضّل!».

فتقدم الرجل ـ لا سلام ولا كلام ـ وراح يلتهم مما في زوادة الفلاح بشراهة حتى أجهز عليها، بدون أي مجاملة. ومسح فمه بكمّه، ونهض منصرفاً، لا شكر على معروف ولا أي كلام حسب المألوف.

فاستمهله الفلاح وسأله عمّن يكون.
قال الرجل إنه واحد من عبيد الله.

فدهش الفلاح وقال لنفسه، واحد من «عبيد الله»، يا للغرابة! أفيمكن أن يكون عبيد الله أقلّ تهذيباً من عبيد الأمير بشير!.

ثم رفع الفلاح عينيه إلى السماء وقال: «أرجوك يا الله! إذا أردت، من الآن وصاعداً أن تختار لك عبيداً، أن تستشير الأمير بشيراً، لأنه أخبر منك بمعرفة الشبعان من الفجعان».

الحق على الحكومة

كانت الديمقراطية ما زالت بخير حين دعي نائب لبناني كان يتزعم المعارضة في العهد الشهابي، في الستينات، إلى مناظرة متلفزة، مع الحكومة، ممثلة بوزير كان من أشهر المحامين. وفور انتهاء المناظرة جاء بعض المحامين يعاتبون زميلهم المحامي الوزير لأنه تخاذل في النقاش وبدا عليه الوهن، وهو المحامي الذي لم يسبق له أن خسر دعوى أمام المحاكم.

قال المحامي الوزير: «وهل نسيتم أنني كنت أدافع عن الحكومة، وفي لبنان يكون الحق دائماً على الحكومة».

الحكاية الشعبيّة في المجالس العالميّة

في مقابلة تلفزيونية، قلت يوماً ان الحكاية هي أبلغ وسائل التعبير في الأدب الشعبي، أي في أدب عامة الناس. فاتصل بي شيخ الأدباء الشيخ خليل تقي الدين وقال: «لا لا، بل الحكاية، هي أبلغ وسائل التعبير عند الناس عامةً، لا عند عامة الناس فحسب».

وروى لي الشيخ خليل أن حميد فرنجية، أحد كبار رجال القانون في لبنان، استعار إحدى الحكايات الشعبية، للتعبير عن موقف الدولة اللبنانية، لدى أكبر مرجع دولي، قال:

ـ حكم الفرنسيون بلادنا أكثر من ربع قرن، ولما طلب لبنان، انهاء حكم الانتداب الفرنسي، قال مندوب فرنسا في هيئة الأمم (أو في مجلس الأمن) إن فرنسا التزمت تطوير النظام الاقتصادي والسياسي في لبنان، وهي لذلك تريد أن تبقى لإنجاز مسؤولياتها فيه.

فوقف حميد فرنجية، ممثل لبنان، وقال:

ـ يُحكى أن رجلاً طلب مقاضاة رجل آخر أمام القاضي، قال: «حمار هذا الرجل رفس زوجتي وهي حامل في شهرها الثالث، فأسقطت حملها، والرجل مسؤول عن حماره».

فقال صاحب الحمار: «أجل يا سيدي القاضي، أنا مسؤول عن جريمة حماري، وأريد أن أبرّىء ذمتي مع هذا الرجل، لذلك أقبل بكل طيبة خاطر أن أتسلم زوجته واحتفظ بها عندي، فلا أعيدها إليه، إلا وهي حامل في شهرها الثالث».

وسكت حميد فرنجية تاركاً للآخرين أن يعلّقوا حسب قناعاتهم، لأن الحكاية كانت أبلغ كلام في مثل ذلك المقام.

حكمة لقمان لهذا الزمان

مات الرئيس الدكتور عبد الله اليافي شبعان أياماً وأحكاماً.. وكلاماً. قيل إن أحد المراسلين زاره في أواخر أيامه، بعد اعتزاله السياسة، وسأله رأيه في المستجدات على الساحة اللبنانية، فأجاب بحكمة لقمان الحكيم، قال: «حاولت تعليم حماري الكلام، فتعلمت منه السكوت».

"كتبنا لأجل سببنا"

كان حبيب أبي شهلا أحد مهندسي عهد الاستقلال في لبنان، في الأربعينات ويُنسب إليه قوله ان الكذب في السياسة هو من الفنون الجميلة متى عبّر عن أفكار جميلة بكلمات جميلة وأُسلوب جميل. وكان يُصنِّف رجال السياسة ثلاثة أصناف. فسألوه: «وكيف يكون ذلك؟»

قال: كان لأحدهم ثلاثة أبناء، وكان يثق باثنين منهم، ولا يثق بالثالث: قال: «إبني الأول يصدق دائماً، وإبني الثاني يكذب دائماً، فأعرف كيف أتعامل معهما، لأن كل واحد منهما واضح لا أحتاج معه إلى إشغال فكر وإضاعة وقت. أما إبني الثالث فمتقلّب حسب مزاجه ومصلحته، يصدق تارةً ويكذب تارةً، فأَحتار كيف أتعامل معه».

* * *

كان الشيخ بشارة الخوري رئيس جمهورية لبنان الأسبق في أوج كرامته حين زار مرجعيون، في جنوب لبنان، سنة ١٩٤٥ مع حاشية من كرام ذلك الزمان بينهم رئيس الحكومة سامي

الصلح ووزير الداخلية يوسف سالم وقائد الجيش اللواء فؤاد شهاب وبعض وزراء ونواب الجنوب، بالإضافة إلى حبيب أبي شهلا.

وكان المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي، مطران مرجعيون الأرثوذكسي (قبل أن يصير بطريركا) قد أعدّ لفخامته وليمة عامرة افتتحها بخطاب وطني رحب فيه بفخامة الرئيس، بطل الاستقلال وسيد المواقف الوطنية... ولم تكن تعوز سيادته أساليب البلاغة في المناسبات الكبيرة.

ثم وقف فخامة الرئيس الذي كان كذلك من أسياد الكلام، وألقى خطاباً مدح فيه سيادة المطران ووصفه بأنه من أُمراء الدين والدنيا...

وكان بعض الحاضرين قد أعدّوا للمناسبة كلمات راحوا يتابعون القاءَها، وكانت جميعها طافحة بالمديح. فاستدرك أحد الحاضرين وقال: «نريد أن نسمع كلمة من الأستاذ أبي شهلا». فصفق الجميع، وهتف بعضهم بحياة الزعيم المحبوب حبيب أبي شهلا.

وقف أبي شهلا، وقد اتجّهت إليه جميع الأنظار وقال: «ها نحن الآن بين رجلين عظيمين، هما فخامة الشيخ بشارة الخوري وسيادة المطران أبو رجيلي، وكلُ واحدٍ منهما...»

وسكت أبي شهلا وهو يجيل نظره في وجوه الحاضرين،

فقال أحدهم: «أعظم من الآخر». فهزّ أبي شهلا رأسه وبقي ساكتاً مستدرجاً الآخرين إلى الكلام.

فقال رجل ثانٍ: «أبلغ من الآخر؛ وقال رجل ثالث: «أفصح من الآخر». وقال رجل رابع: «أصدق من الآخر».... وهلمّ جرا.

وكان أبي شهلا يتابع هزّ رأسه، ولا ينبس ببنت شفة، ولما استنفد القوم ما عندهم من أوصاف لفخامة الرئيس وسيادة المطران، قال: «لقد وصفتموهما أبلغ وصف، ولم تتركوا لي ما يقال في هذه المناسبة العظيمة».
وجلس في مكانه.

وكان اللواء فؤاد شهاب يجلس إلى جانب أبي شهلا إلى المائدة، فقال له: «لم تصدق ولم تكذب.. لكنك قلت لنا كل شيء».

* * *

يقول الذين عايشوا عهد اللواء فؤاد شهاب في رئاسة الجمهورية، انه بقي جندياً في أسلوب تعاطيه مع رجال السياسة، وانه كان يمقت الممالأة ويحتقر التملق.

وحدث أن رؤساء الطوائف المتعددة في لبنان تزاحموا إلى تهنئته بعد تبوئه كرسي الرئاسة. وكان كل واحد منهم، بعد تقديم عبارات التهنئة التي كانت لا تخلو من الممالأة، لا

يلبث أن يتقدم بمطالب لطائفته، حتى ضاق فخامته ذرعا بالمطالب الطائفية.

وحضر أخيراً وفد طائفة البروتستانت، أصغر طائفة في لبنان، فعاجلهم الرئيس شهاب بقوله: «.... وما هي مطالبكم؟»

فقال رئيس الوفد القس إبراهيم داغر: «ليست لنا مطالب، وما جئنا الآن، إلا لنسأل الدولة، إذا كانت تريد منا أي خدمة، حسب إمكانياتنا المتواضعة.»

فقال الرئيس شهاب: «أنتم، إذن، الطائفة الوحيدة في لبنان، التي ليست لها مطالب من الدولة.. وسأذهب يوم الأحد القادم، لكي أُصليّ في كنيستكم إلى الله، لكي يعطيني القدرة على استجابة جميع المطالب الطائفية.

* * *

يروي أحد المقربين من جورج حيمري مدير غرفة رئاسة الجمهورية، أن الرئيس فؤاد شهاب كان يصنف رجال الصحافة صنفين، فيتعامل مع أصحاب المبادىء منهم بكل احترام، ويحاذر المنتفعين منهم ما استطاع، فإذ طلب أحد هؤلاء مقابلة فخامته، دخل جورج حيمري وقال له: «هوذا في الخارج رجل من جماعة «كتبنا لأجل سببنا» يريد مقابلتكم». فيفهم الرئيس كيف يجب أن يتعامل مع الرجل.

وعبارة «كتبنا لأجل سببنا» التي تجري مجرى الأمثال لها

حكاية تقول أن رجلاً مرضت زوجته مرضاً عضالاً. وحدث أن مرّ في القرية طبيب دجّال واستدعاه الرجل لمعالجة المرأة. فأخذ الطبيب قصاصة كتب عليها عبارة، وطوى القصاصة وغلّفها بغلاف من الجلد خاطه بشكل حجاب، وأشار على الرجل أن يعلق الحجاب في عنق زوجته، فتشفى بعد ثلاثة أيام.

ومضى الطبيب الدجال في سبيله، بعدما قبض من الرجل ما تيسّر، لكن المرأة ما لبثت أن ماتت بعد يومين، ففتح الرجل الحجاب وقرأ العبارة فيه، فإذا هي:

«كتبنا لأجل سببنا، صحّت أو ما صحّت لذنبنا»

الظلم أسلم عاقبة من رخاوة الحكم

تولى سامي الصلح رئاسة محكمة الجنايات في لبنان، ورئاسة الحكومة مراراً وفي ظروف معقدة، واشتهرت أحكامه بوضوح الرؤية وصلابة الموقف. ويقال إنه في أواخر أيامه كان يردد قولاً مأثوراً منسوباً إلى الأمير بشير الشهابي الكبير، وهو:

«الظلم أسلم عاقبة من رخاوة الحكم».

الكلام من أسباب الخصام

زرت البرازيل خريف ١٩٧٦ والحرب في لبنان تتجه اتجاهاً طائفياً بغيضاً. فالتفّ حولي الإخوان يتسقطون أخبار الوطن، وبادرني الأديب المغترب فارس الدبغي بسؤال. قال إنه تردد على لبنان مراراً في الخمسينات والستينات، وحضر عدة حفلات ومناسبات، وسمع المتكلمين، من مختلف الطوائف يتكلمون عن وحدة الصليب والهلال. ويؤكدون أن لبنان هو النموذج الأمثل للتعايش المسيحي الإسلامي المشترك في الشرق الأوسط، فماذا عدا مما بدا حتى خمدت حرارة الوحدة الوطنية واستعرت الحساسيات الطائفية ونشطت التصفيات على الهوية...

وبينما أنا أتهيأ للإجابة عاجلني خليل فرحات، وهو لبناني حديث الهجرة إلى البرازيل، قال:

ـ يُحكى أن جمعية تنشيط الحياة الزوجية، في إحدى مدن أميركا، أقامت حفلة تكريمية لرجل وزوجته، باعتبارهما مثال الحياة الزوجية الهنيئة، طوال خمسين سنة، لأنهما لم

يتخاصما أو يتنافسا أو يتعاتبا طوال زواجهما، وصارا نموذجاً للتفاهم العائلي.

وانبرى الخطباء في إطراء مزايا الرجل وزوجته، لأنهما يمارسان حياة زوجية سعيدة صارت مثالاً للمتزوجين في التفاهم وصفاء العيش المشترك.

وجاء أخيراً دور الرجل للرد على أقوال الخطباء، فقال:
«الصحيح أنني عشت مع زوجتي حياة هنيئة، فأنا أعرف أن الرجل عليه أن يتساهل مع زوجته، ويغضّ الطرف عن هفواتها، مهما كانت غشيمة، لكي يضمن راحة باله. وأن يتجاهل كل تقصير من زوجته نحوه. فلا يعاتبها على زلة لسان، ولا يظهر أي شك في سلوكها، ولا يتبرّم من ترثرتها...»

كان الرجل يتكلم، والأنظار تتجه إلى زوجته التي تحلفصت في مجلسها وتنحنحت. لعل زوجها يشتلق ويعتدل في كلامه، غير أنه تابع كلامه فقال:
«...ولا سيما إذا كانت شنيعة، غير مطيعة، سيئة الهندام، قليلة الاحتشام في مجالس الرجال...»

فانتصبت المرأة وصرخت: «كفى! كفى! إنك رجل أحمق ثقيل الدم، قليل الأدب، لا يعجبك العجب...»

وهجم الرجل على زوجته يريد إسكاتها. «وحميت بينهما حدّة الخصام، وتعطلت لغة الكلام...»

وقبل أن يختم خليل فرحات أطروحته قوطب عليه فارس الدبغي بمداخلة ارتجاليه، قال:
«...وصرخ رجل من الجمهور: «اسكتي يا امرأة، دعي زوجك يتكلم، لكي نعرف الحقيقة!» فتصدّت له زوجته التي كانت تجلس إلى جانبه وقالت: «لا بل يجب إسكات الرجل الذي ظنناه زوجاً فاضلاً، فإذا هو من السفهاء».

وبينما دخل هذا الرجل في نزاع مع زوجته، سُمع رجل آخر في المقدمة يشتم بنات حواء، لأنهن أصل البلاء، وشوهدت أربع نساء يتضافرن عليه ويطرحنه أرضاً. وتطايرت فردة حذاء وسقطت على رأس رجل أصلع، وأُغمي على احدى النساء.. واختلطت الشتائم بالضوضاء. واحتدم الرجال بالنساء، ولا من يدعو الجميع إلى كلمة سواء... «وانتهت الحفلة بإعلان فرط جمعية تنشيط الحياة الزوجية تداركاً لأسباب الفرقة والبلاء».

لبنان: نوّاب وشعراء

ملأ الشاعر اللبناني موسى الزين شراره مكاناً رحباً في دنيا الأدب. وقيل إن أحد أقطاب السياسة أغراه يوماً بخوض إحدى المعارك النيابية المضمونة، فأبى، لأنه حرص على أن لا يكون «كمالة عدد» في أي تكتل نيابي، ولما سألناه عن قناعته في سياسته أجاب شعراً، قال:

قالوا، النيابة. قلت، ليست مأربي
هي مأربُ المتزلّف المتملّقِ
ومضيتُ أمشي حافياً، وأنا الذي
ما اعتدت مشياً في حذاءٍ ضيّقِ

فهل كانت بعض النيابات في لبنان «مشياً في حذاء ضيّق»، ومتى وكيف ولماذا؟

ما لا ريب فيه أن الحياة النيابية في لبنان زخرت بنواب أكفاء أسياد مواقف ومشترعين وخطباء وأصحاب مبادىء، وكانت قمة عطاءات المجلس النيابي يوم قرر تعديل الدستور سنة ١٩٤٣ متحدّياً بذلك سلطة الانتداب الفرنسي، وبمؤازرة شعراء

وأدباء ذلك الزمان. وتنسب إلى رئيف خوري، بالمناسبة، أبيات مطلعها:

غدا نوابنا مستأسدينا وصار اليوم مجلسنا عرينا

لكن ما لا ريب فيه كذلك أن بعض الأدباء ورجال الفكر الذين خبروا الحياة النيابية، بمفارقاتها، ما لبثوا أن زهدوا بها. ومنهم على سبيل المثال، ميشال شيحا وشارل عمون والشيخ إبراهيم المنذر والياس فياض وأمين نخله. وكان جان عزيز، قبل أن يصير نائباً، يحلم بلبنان وطناً مثالياً تحكمه عقول حكمائه، وتنسب إليه أبيات كان يرددها، في مناسباتها، بعدما خبر الحياة النيابية، ومنها:

مَن جرّب المجرّبا فعقله تخرّبا
ما يُرتجى من غافلٍ يمشي.. إذا يوماً كبا

وفي دارسة أجرتها جريدة النهار البيروتية، عن الحياة النيابية في لبنان، ثبت أن أطول النيابات عمراً وأوسعها نفوذاً كانت نيابات أنصاف المتعلمين، وأن نواباً كثيرين مروا في حياة المجالس النيابية مرور الكرام.

ومن أخبار جنوب لبنان أن وجيهاً معروفاً كان عنده ثلاثة أبناء تعلم الأول منهم المحاماة وصار سفيراً، وتعلم الثاني الهندسة وصار مديراً عاماً. وسُئل الوالد، لماذا ترك ابنه الثالث بدون تحصيل عالٍ، قال: «لكي يتعاطى السياسة!»

وتعاطى الإبن الثالث السياسة وصار نائباً محترماً.

ويُحكى أن رئيس الجمهورية اللبنانية الأول شارل دباس، طلب، بعد انتهاء ولايته، من المفوض السامي الفرنسي أن يعينه نائباً في مجلس النواب، إذ ان المفوض السامي كانت له صلاحية تعيين ثلث أعضاء المجلس، فاستغرب المفوض السامي طلب رئيس الجمهورية السابق وقال له: «ظنناك شبعت مجداً!»

ولم يكن شارل دباس هو الرئيس الوحيد الذي لم يشبع مجداً. مثله كان الرؤساء إميل إده والفرد نقاش وكميل شمعون، الذين ما أن انتهت مدة رئاساتهم حتى سعى كل واحد منهم إلى تأمين كرسي له في مجلس النواب، لأن النيابة وجاهة. ومَن أدمن الوجاهة شرب كأسها حتى الثمالة.

* * *

كانت الانتخابات النيابية، قبل تعطيلها بسبب الحرب، تُجرى كل أربع سنوات، فيفتح المرشحون أبوابهم لاستقبال الأنصار والمؤيدين.. ويفتحون صناديقهم أحياناً لشراء أصوات المستنفعين، ولذلك كان كثيرون من أبناء الشعب ينتظرون الدورات الانتخابية كمواسم خير وبركة.

وحدث أن رجلاً من أبناء الجنوب نقل محل إقامته مع والديه وسائر ذويه إلى منطقة زحلة الانتخابية، حيث قيل ان

ثمن الصوت كان يبلغ أحياناً ضعفي ثمنه في الجنوب. لكن الرجل ما أن أنهى معاملة نقل محل اقامته مع ذويه، حتى تعطلت دورات الانتخاب، في السبعينات، وما زالت معطلة حتى اليوم، بسبب اضطراب الأمن، وبارت مواسم الخير والبركة عند الرجل الذي قيل انه كان شاعراً زجلياً، فقال بعد بوار أربعة مواسم انتخابية:

أربع مواسم إنتخاب شو نابنا
عالسكت صاروا يجددوا نوابنا
بكرا إذا بيعود يمشي الإنتخاب
عن كل موسم صار بدنا حسابنا

وبعد أن جدد النواب بأنفسهم لأنفسهم مراراً، بدون جميلة الناخبين، وبعد حرمان هؤلاء من مواسم الانتخاب، أقدم النواب على زيادة رواتبهم. ويشير الشاعر عبد الحسين عبد الله إلى زيادة رواتب النواب بقصيدة يختمها بقوله.

وعلا بصرح البرلمان ضجيجهم
فسألت ماذا؟ قيل: زادوا الراتبا



قضى الشيخ موريس الجميل عشر سنوات وهو يفكر في كيفية إصلاح المجتمع اللبناني «من فوق». ثم قضى عشر سنوات أخرى وهو يفكر في إمكانية اصلاحه من تحت. ثم قضى نحبه قبل أن يقول لنا أخيراً من أين نبدأ.

العُميان وَابن الشَيطَان

مات الشيخ موريس الجميل وهو يفكر في كيفية اصلاح المجتمع اللبناني، وكانت تشغله بصورة خاصة، أوضاع جنوب لبنان الذي كان يعاني اهمالاً مزمناً رغم كونه منطقة حساسة يجب أن تُعطى اهتماماً خاصاً. وكان يعتمد على الشيخ حليم طربيه، قائمقام مرجعيون الأسبق، في جمع المعلومات وتقصي الوقائع لإعداد دراسة وافية عن المشاريع الواجب تنفيذها في الجنوب، ولا سيما مشاريع الري، للاستفادة من فائض مياه نهر الليطاني وسائر روافد المياه في الجنوب.

وحدث يوماً أنني رافقت الشيخ حليماً في زيارة نائب الجنوب الأسبق المرحوم علي العبد الله الذي كان زعيماً شعبياً قبل أن يصير نائباً وبقي يتكلم من منطلقات شعبية في احاديثه السياسية.

وقبل أن يسهب الشيخ حليم في ذكر المشاريع الجاري درسها والمنوي تنفيذها، لإحياء الجنوب، عاجله، السيد العبد

الله بقوله: «قصتنا نحن أبناء الجنوب مع الدولة مثل قصة العميان مع ابن الشيطان».

قلنا: «وكيف كان ذلك؟»

قال: «يحكى أن الشيطان أراد أن يمتحن ذكاء ابنه في فنون الشرّ، فقال له: «هوذا جماعة من العميان الفقراء، في محلة كذا، يعيشون في سلام ووئام ويشكرون الله على كل حال، رغم عماهم وفقرهم.. والمطلوب إيجاد فتنة في ما بينهم».

وذهب ابن الشيطان ومعه كيس فيه ليرات ذهب وقال للعميان: «خذوا هذه الليرات الذهب وتقاسموها في ما بينكم!» وحرّك ابن الشيطان كيس الليرات لإسماع العميان صوت رنين الذهب، دون أن يعطيهم شيئاً، ومضى في سبيله.

فهبّ العميان يطالبون بعضهم بعضاً، ويقول كل واحد منهم لغيره: «أين حصتي؟.. أعطوني حقّي!»

وما لبث العميان أن تشاجروا وتعاركوا وتشاتموا وتخابطوا خبط عشواء، وكفروا بنعمة ربهم.. وما زالوا على هذه الحال إلى يومنا هذا».

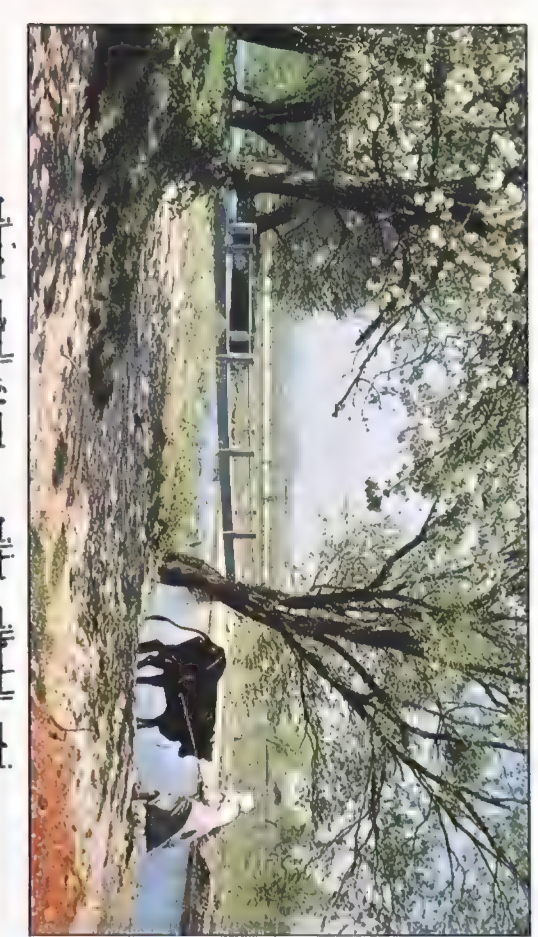
قدّموا إليه التهاني

نُمي، يوماً، إلى مخفر النبطية، أن مجهولاً تسلل إلى جسر القعقعية، الكائن فوق نهر الليطاني في جنوب لبنان، وكتب على حافة الجسر كتابة فيها تحريض على السلطة ودعوة إلى الإخلال بأمن الدولة. فتوجه رئيس المخفر إلى مكان الحادث وأجرى الكشف وكتب تقريراً يفيد أنه وجد على جدار الجسر، ردتين من الزجل، مكتوبتين بخط عريض ملفت للنظر، وهما:

نهـر الليـطاني بـذاتـو	بيـروي البحـر بميّـاتـو
ونحنـا حدّو عـطشـانين	وأشجار الكانـو، مـاتـوا

وأحيل التقرير من رئيس المخفر إلى آمر الفصيل إلى المحافظة إلى وزارة الداخلية، مذيّلا بعبارة: «... والتحريات جارية لمعرفة الجاني».

كان وزير الداخلية، يومئذ، ميشال زكور الذي اشتهر بحسن المبادرة، فأعاد التقرير، بالتسلسل، إلى مصدره، مذيلاً بعبارة «... وإن حظيتم بالجاني، قدموا إليه التهاني».



نهر الليطاني بذاتو بيروي البحر بمياتو
ونحنا حدو عطشانين وأشجار الكانو.. ماتو



سُقى اللهُ زمان «العين» كيف كِنّا من العين كانت كلّ مَيّتنا
كِنّا نْعيشْ بفرد قلب وربّ وبفرد رأيْ تظل ضيعتنا

لبنان أمّة أم جبل!

كان لبنان، في الخمسينات، ما زال موئل الأحرار الملاحقين في أوطانهم.. والملحوقين إليه من كل مكان حين ضاقت الدنيا بالشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري فلاذ بحمى لبنان. لكن النقمة كانت تلاحقه حتى في لبنان الذي - على رحابة صدره - ضاق به أيضاً، وأنذرته الحكومة اللبنانية بأنه غير مرغوب فيه عندنا.

وقُوبل إجراء الحكومة بنقمة شديدة عبّر عنها رئيف خوري بقصيدة مطلعها:

وطني! وكنتُ أقول لي وطنٌ   حـــرٌّ على الأحـرار مؤتمنُ

وفي غفلة من غفلات الزمان، يوم كان ما زال للشعر العربي التقليدي أسياد منابر في كل مكان، ويوم كانت مواسم العزّ مقبلة في لبنان، فطن اللبنانيون إلى وجوب تكريم الشاعر الأخطل الصغير (بشاره الخوري) في مهرجان يشترك فيه فطاحل الشعر في العالم العربي. وفطنت لجنة التحضير إلى

الشاعر محمد مهدي الجواهري، قالوا، يجب أن يكون الجواهري أحد شعراء المهرجان. فيعاد إليه اعتباره ـ أو يعاد اعتبار لبنان إليه ـ بعد حادثة إبعاده، من لبنان، لسنوات قليلة خلت.

وفي قاعة اليونسكو في بيروت التأم شمل أكبر شعراء العرب صيف ١٩٦١ لتكريم الشاعر الأخطل الصغير. وكأنما كان المهرجان لتكريم لبنان، أكثر مما هو لتكريم شاعر من لبنان، لأن لبنان كان ساعتئذٍ على كل شفة ولسان.

وجاء دور الشاعر الجواهري الذي بدأ قصيدته بقوله:

لبنانُ يا خمري وطيبي   هلّا لممتِ حطام كوبي

وذلك بكسر تاء «لممت». واسترسل الشاعر في تأنيث لبنان، حتى قال مخاطباً لبنان: «يا بنت ساحرةٍ...» فقاطعه أحد المستمعين قائلاً: «لبنان صبي! صبي! صبي!»

ولم يكن بإمكان الشاعر أن يستدرك لأن سلامة الوزن والقافية كانت بالمرصاد. وحدث لغط في أطراف القاعة احتجاجاً على تأنيث لبنان وجاء من يعاتب الجواهري، بعد انتهاء الحفلة، لماذا خاطب لبنان بصفة المؤنث، قال: «خاطبت لبنان بصفته أمّة.. لا جبلاً».

مع ذلك تفاعلت القضية، فقيل لا بد أن تكون هنالك مؤامرة على لبنان يجب تداركها قبل استفحال أمرها. وتصدى

للموضوع أحد أساتذة اللغة في احدى المجلات. قال إن لبنان اسم مذكر على وزن «فعلان». وكل اسم على وزن «فعلان» هو مذكر، حكماً، مثل سكران ونعسان وظمآن. فهل كان الشاعر الجواهري يجهل ابسط قواعد اللغة حين خاطب لبنان بصفة المؤنث!

وبما أنه لم يكن عندنا مشاغل مصيرية أخرى في ذلك الزمان، فقد شغلتنا قضية تأنيث لبنان إلى أن حسمها أحد الظرفاء بقوله إن الحق على حكومتنا التي طردت الجواهري منذ بضع سنوات، وهو جاء الآن يردّ إلينا الإساءة بإساءة أثقل منها، وذلك بتأنيث لبنان.. وأي كلمة أثقل على مسامع رجل من قولك له: «يا امرأة!»

إن أخطأ الفرمان...

امتازت مرويات علي بزي نائب لبنان الجنوبي، سابقاً، بالظرف والعمق السياسي ولا سيما متى تحدث عن جنوب لبنان، وعن إهمال الحكومات المتعاقبة، شؤونه الحياتية، وعن تجاهل دور أبنائه في القضايا المصيرية.

حدثنا يوماً قال إن إحدى الحكومات اللبنانية اختصت قرية «زبدين» باعتماد في إحدى الموازنات، بناء على طلب بعض نواب الجنوب. وانتهت السنة، وتلتها سنوات، وطار الاعتماد في زحام النفقات والمخصصات. . والمحسوبيات.

وتبين في ما بعد أن الاعتماد المخصص لقرية زبدين في قضاء النبطية، في لبنان الجنوبي، تم إنفاقه في قرية بزبدين (لا زبدين) في قضاء بعبدا، في جبل لبنان. وكان ذلك نتيجة خطأ في قراءة اسم القرية، كما تقول الرواية.

وأضاف علي بزي أن أحد نواب الجنوب جاء يسأل الوزير المختص عن سر انتقال الاعتماد من قرية محرومة في جنوب

لبنان إلى قرية محظوظة في جبل لبنان. فقال الوزير: «إن أخطأ الفرمان، ما أخطأ السلطان!»

وعلّق علي بزي بقوله: «وكل مفعول جائز في لبنان».

قلنا: «ولكن ما هي علاقة الفرمان والسلطان مع حكومات لبنان، في هذا الزمان؟»

قال: «هذا مصطلح كلام شائع في الإدارات الحكومية، منذ عهد بني عثمان، وهو يقال حين يغلط الحاكم ولا يعترف بغلطه. ولهذا المصطلح حكاية تقول ان السلطان عبد الحميد، أحد أشهر سلاطين بني عثمان، كلف اثنين من كبار معاونيه، وضع دراسة مفصلة عن أحوال ولاية سورية، بعد إعدام مدحت باشا، الذي ولّي ولايتها في عهد عبد الحميد.

فطاف الرجلان أرجاء الولاية وأحضرا الدراسة المطلوبة ورفعاها إلى اعتاب جلالته. فرضي عبد الحميد تمام الرضى عن الرجلين وأمر لهما بإنعام همايوني شريف، وتم في الحال وضع فرمان يُنعم بموجبه على أحدهما بمصحف مذهب، وعلى الآخر بجارية صبيّة حسناء.

واستدعي الرجلان، وتلي عليهما الفرمان، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ تبين خطأ في الفرمان أعطي بموجبه المصحف الشريف إلى الرجل الأول، وهو شاب في مقتبل العمر. . بينما أُعطيت الجارية الصبية الحسناء إلى الرجل الآخر وهو شيخ شبعان أياماً.

وقام حامل الأختام ودخل على السلطان واستغفر واعتذر عما بدر، وقال إن خطأً ظهر في الفرمان يوجب عادة النظر في نصيب كل واحد من الرجلين. لأن الجارية الصبية الحسناء كان يجب أن تكون من نصيب الشاب. والمصحف الشريف لا بد أن يكون من نصيب الشيخ الذي اعطاه الله ما كفاه.

ففكر السلطان قليلاً، ثم قال: «إذا أخطأ الفرمان، لا يخطىء السلطان أنا عبد الحميد خان، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، وكل ما يقترن بتوقيعي يُعتبر حقاً وصواباً. أعطوا المصحف المذهب إلى الشاب، ليذكر خالقه في أيام شبابه، وأعطوا الجارية الصبية الحسناء إلى الشيخ، ليشبع من دنياه، ويستقبل أُخراه راضياً مطمئناً».

النَّوَر أبناء خالتنا

ينتشر النَوَر (الغجر) في أكثر انحاء آسيا وإفريقيا وأوروبا. وهم أينما عاشوا. يعانون ظروف المسكنة والهوان. ويقول القرويون في لبنان إن النور ليسوا أهل كتاب. لذلك يعيشون حياتهم الدنيا في عذاب، إلى أن يهديهم الله سبيل الصواب.

ومهما كان رأي الناس في النور، لا بد من الاعتراف بأنهم أهل فنّ وكيف وطرب. أينما ضربوا خيامهم ضربوا طبولهم وغنّوا وعزفوا ورقصوا ونشروا الإيناس على وجوه الناس.

والنَوَر إجمالاً هم قوم، لا وطن لهم ولا هوية. لا يقرأون ولا يكتبون. لا يدفعون ضرائب ولا يُستخدمون جنوداً. لا حق لهم في تملك أرض أو اقتناء سلاح. ولهم لغة وحدة مشتركة ونظام عيش واحد هو الإقامة في الخيام والرحيل الدائم. وهم يسافرون بدون جوازات سفر. وقد عجزت حكومات كثيرة عن تمدينهم وقوننتهم. بيد أنهم، والحق يقال، مسالمون، لم يتورطوا يوماً في أي فتنة طائفية.



«... قدامك طريق. ثالك رفيق. زوج وحداك بترجع راضي. قول إنشالله! وراك نسوان، بألف لسان. عليك الأمان، قول إنشالله!»

وكان الأقدمون يردفون بكلمة نوري كلمة «أندبوري»، وهي فارسية، أي هندي نسبة إلى كلمة «إند» أي الهند التي ارتحل النور منها في القرن الخامس الميلادي.

لذلك يعيش النور غرباء اينما كانوا إلا في لبنان حيث يتجامل القروي مع النوري بقوله له: «يا ابن خالتي!» ومنذ أصبح النور أبناء خالتنا صاروا يعيشون بيننا بسلام.

وكان النور، قديماً، يرجعون في بلادنا إلى ثلاث مرجعيات: الأولى في صفد ـ فلسطين والثانية في عنجر ـ البقاع والثالثة في سوق الخان ـ حاصبيا. وكان لكل مرجعية ريّس (رئيس) وكان ريس مرجعية سوق الخان في أيامنا هو الريس حسن، وكان يعيش معه في مرجعيته كل من عازف الرباب أبو ذياب والراقصة فتحية والبصارة كواكب وضاربة الوشم أم سرحان. وكان أتباع الريس حسن منتشرين في جنوب لبنان، وفي الشوف ساحلاً وجبلاً.

وكانت إحدى حكومات العهد الوطني قد حاولت تجنيس النور المعروفين بنور سوق الخان لأسباب سياسية ولزيادة عدد الناخبين في المنطقة، ولذلك أحصي عددهم فبلغوا سبعمئة نورياً بدون زيادة أو نقصان.

ويقول فريد حبيب الذي تولى مديرية الأحوال الشخصية في لبنان، سابقاً أن محاولات تجنيس النور باءت جميعها بالفشل،

لأن القانون في لبنان، يوجب على حامل الهوية اللبنانية أن يذكرا اسم طائفته، أي مذهبه، لا دينه فحسب على هويته. والنور يصرون على لا طائفيتهم، لعلهم اللاطائفيون الوحيدون على الساحة اللبنانية. وقد أشار الشاعر محمد علي الحوماني إلى هذه الحقيقة، قال:

قالوا، لنا مبدأٌ حرٌّ، وقد سخروا
من كل حُرٍّ. وعن نهج الهدى نفروا
تقاسمونا رعايا في طوائفهم
وفي وصايتهم، يا ليتنا «نَوَرُ»

* * *

في ذلك الزمان كان عدد الطوائف المعترف بها في لبنان خمس عشرة طائفة. ولأسباب أقرّها بعض اللبنانيين وأنكرها البعض الآخر اعترفت الحكومة اللبنانية بطائفتين جديدتين، فصار عدد الطوائف عندنا سبع عشرة طائفة. ونُسب، يومئذ إلى سياسي معروف قوله أن قوة لبنان هي في كثرة عدد طوائفه المتآلفة. فعلق محي الدين النصولي في جريدة بيروت: «ولماذا، إذاً، لا يكون للنور في لبنان طائفة أيضاً، هي «طائفة اللاطائفة»، ما دام النور موجودين في بلادنا، ربما، قبل كثيرين منا».

وسُئل القس إبراهيم داغر رئيس الطائفة الانجيلية في لبنان، وهي من الطوائف الأقل عدداً والأكثر علماً، عن موقف طائفته

من حرب الطوائف في لبنان، فقال: «نحن طائفة لا طائفية، وأبواب كنائسنا ومدارسنا مفتوحة للجميع، وكل من يخاف الله هو أخٌ لنا».

أليس غريباً، إذاً، ولبنان بلد الغرائب، أن يُقال ان النَوَر وهم أقل الناس علماً، والانجيليون وهم أكثر الناس علماً، غابوا، أو غُيِّبوا عن لعبة لبنان السياسية المعقدة.

* * *

صديق لبناني مغترب زار لبنان في السبعينات ورجع بانطباعات خاصة. وهو يعيش الآن قلق المصير مثل جميع اللبنانيين. وفي آخر كتاب منه يسألني ثلاثة أسئلة ليبني في ضوئها رأيه حول أي مصير ينتظر لبنان:

١ ـ ما هو وضع الجامعة الأميركية في بيروت، ومستشفاها ومكتبة يافت الموجودة فيها، والجامعة الأميركية هي أحد رموز الحضارة في الشرق الأوسط.

٢ ـ ما هو مصير السبعمئة خادمة سيريلنكية العاملة في بيوت الطبقة المترفة في بيروت، بعد عمليات التهجير الجماعية المتواصلة.

٣ ـ ما هو مصير جماعة النَوَر المنتشرين في جميع أنحاء لبنان. والنَوَر هم أهل فرح ومرح ولا يقيمون إلا حيث يكون ثمة رخاء وصفاء وهداوة بال.

وصديقنا صاحب هذه الأسئلة يكاد يعرف عدد المقاتلين . . وعدد المقتولين في لبنان. وعدد المهجّرين . . وعدد المهاجرين من لبنان. وقيمة الأضرار في المصالح والممتلكات العامة والخاصة، وهو مع ذلك يربط مصير لبنان بمصير النور في لبنان، سامحه الله.

تجليس ذنب الكلب

كتب رشيد أبو كسم وهو مغترب لبناني مثقف في البرازيل إلى الشاعر فؤاد جرداق في مرجعيون يسأله عمن هو القائل . . وعمن هو المعني بقول الشاعر:

أردناك موفور الكرامة، سيّداً
فيا ذنب الكلب الذي ليس يجلِسُ

فأجاب الشاعر الجرداق شعراً:

لعلك مثلي بالكفاح موسوسُ
تغامر في تجليس ما ليس يجلسُ
إذا شئت في لبنان تحرير شعبه
و «تجليس ذيل الكلب»، لا شكَّ، تُحبسُ

تطـــوُّر بالمقـلوب

بحكم عملي في وظائف الدولة كنت اتردّد على بعض قرى الجنوب. فإذا أنجزت مهمّتي الحكوميّة تابعت «مهمّتي الأدبيّة» ورحت أتسقّط أخبار الناس، سعياً وراء المأثورات الشعبيّة.

من أخبار إحدى القرى، قيل يوماً إن رجلاً اشترى جرو كلب ضمّه إلى أولاده الخمسة في بيته المحشور، وإن الرجل توسّم في كلبه نباهة خارقة، فسمّاه «نبهان» وعكف على تدريبه بحماسة، مؤكّداً أن كلبه هذا، لا بدّ أن يصير، خلال ستّة أشهر، «نصف ابن آدم».

قلت، هذه محاولة علميّة تستأهل المراقبة. وكلّفت مختار القرية متابعة تطوّر الكلب نبهان في مراحل صيرورته «نصف ابن آدم»، وكثّفت، لذلك، تردّدي على القرية، تكثيفاً لمعلوماتي عن مصير الكلب المزمع جعله نصف ابن آدم.

وفي كلّ مرّة كان المختار يقدّم لي تقريرا عن حالة الكلب نبهان، قال، بعد شهرين من بدء التدريب. إن ابنة صاحب الكلب شوهدت وهي تعرج. وبعد البحث تبيّن إن الكلب

ر نفسه، لضيق المكان، بين رجلي البنت، فداست البنت ... «فكدشها» في عرقوبها.

وقال المختار، بعد ثلاثة أشهر من محاولة الرجل «تأديم» ... له إن الكلب شوهد وعينه «مجلوحة». وأُشيع أن الكلب ... شر نفسه، لضيق المكان، في معلف البقرة التي استقبحته ... طحته، ففقأت عينه.

وقال المختار، بعد أربعة أشهر، إن عتاباً جرى بين زوجة الرجل وإحدى جاراتها، وتطور العتاب إلى مشاتمة، والمشاتمة إلى مدافشة، والمدافشة إلى معافشة، والمعافشة إلى مناتفة بالشعور واتهام الواحدة الأخرى بالفجور. قيل إن الجارة كانت تشاءمت، في ذلك الصباح، لأن الكلب «جاح» بالمقلوب، ثلاث جوحات، وهذا ما اعتبرته الجارة نذيراً بأسوأ التوقّعات...

مع ذلك، قال المختار، إن همّة الرجل لم تفتر في تدريب كلبه إلى أن يصير نصف ابن آدم.

وغب مرور ستة أشهر، وهي المهلة التي قطعها الرجل على نفسه لكي يجعل كلبه نصف ابن آدم، جئت استطلع آخر الأخبار وسألت المختار: «وهل صار الكلب، أخيراً نصف ابن آدم؟»

قال المختار: «لا لا حدث تطوّر بالمقلوب، وبدلاً من أن يصير الكلب نصف ابن آدم، صار الرجل نصف كلب!»

قلت: «وكيف يمكن أن يصير الرجل نصف كلب؟»

قال: «بعد تآلف وتلازم حميم بين الرجل وكلبه، طوال ستة أشهر، صار الرجل يأكل ويشرب ويتمدّد على الأرض مثل الكلب، فإذا تكلّم «عوعص» وإذا ابتسم «نوعص» وإذا سمع وطء أقدام «تحلفص» وإذا تأهّب أقعى على مؤخّرته و «قعص».

ويضيف المختار إن الرجل زادت عنده حاسة الشمّ وصار يستطيع أن يحرّك أذنيه، خلافاً لسائر البنادمين، إذا ما سمع مواء هرّة من بعيد، والأغرب من كلّ ذلك، أنه صار إذا أراد أن يبوّل، رفع ساقه إزاء الحائط، وبوّل جانبيّاً، كما تبوّل الكلاب تماماً.

في ذلك الزمان، كنت، كلّما تسوّقت خبريّة فيها نكهة علميّة أو فلسفيّة، أعرضها على المرحوم انطون غطاس كرم أحد كبار أساتذة الجامعة الأميركيّة، وأستعين به على اكتناه خفاياها، لذلك عرّجت عليه بهذه الحكاية، في طريق عودتي، ولا سيّما أنه كان يعرف تلك القرية ومختارها، فقال: «خذني معك في وقت قريب، لكي نتقصّى الحقيقة عن كثب، فقد يكون المختار جادّاً في كلامه».

لكن القدر كان بالمرصاد، وغاب انطون غطاس كرم، وغابت معه حقائق وأفكار وتطلّعات كثيرة.

ألوني، شو بتتمنّى   تمنّيت نرجع مثل ما كِنّا
يعمرْ مرقد العنزه   وبالصدق والإخلاص يجمعنا



يا مين عندو راي يهديني
وجرعة «صبر أيّوب» يعطيني
حمّلت راسي هْموم فوق هْموم
وهمّ الجنوب وَحدو بيكفيني

المتنبي ونوري نهر الدّامور

في أيام حداثتي، كانت والدتي توصيني أن أُحسن الظن بالناس، لأن الشك يُفسد المودة، وكانت تعزز رأيها بمثل شعبي يقول:

«صَفّي النيّه.. ونام حدّ الحيّه!»

لكنني اكتشفت حين اخشوشن عودي أن الشاعر المُتنبّي كان أكثر خبرة بالناس، من والدتي، حين قال:

إن الأفـاعـي وإن لانـت مـلامـسـهـا
عـنـد التـقلّب فـي أنيـابـهـا العـطبُ

هكذا تتدخل الحية في حياة الناس وتتمثل في أمثالهم وأشعارهم وفي حكاياتهم ومصنفاتهم. ويقال إن كلمة «حياة» مشتقة من كلمة «حية»، لأن الحيّه تحيا وتعمر أكثر من جميع المخلوقات، لذلك جعلها الأقدمون شعاراً للطب، في سعيه الدائم إلى إطالة عمر الإنسان. وشعار الطبّ، إلى يومنا هذا، هو عصا تلتف عليها حية.

واقتران ذِكر العصا بالحية قديم كما جاء في القرآن الكريم، في كلام فرعون إلى موسى: ﴿قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾.

والمعروف أن الحية تخلع جلدها مرتين في السنة، فيقال إنها بذلك تتجدد وتحيا طويلاً. لكن أبا إبراهيم مصطفى الداعوق، الخبير في تصنيف الناس يقول، في حديثه عن الحية، إنها تخلع ثوبها، كما تخلع المرأة ثوبها، وللغاية نفسها، عندما تريد إغراء زوجها بها. لأن الحية والمرأة صنوان.. والواقع أن دور الحية يختلط مع دور المرأة في أساطير الأوروبيين الأقدمين، بحيث يكون الرأس رأس امرأة والجسم جسم حية.

وعلى سيرة الحية.. يروي الحاج إبراهيم العيتاني، أحد عتاق الرجال في بيروت، أن حية جبارة تسلّقت، يوماً، شجرة جميز عالية في محلة ساقية الجنزير في بيروت، وراح رجال المحلة يرشقونها بالحجارة، والحجارة ترتدّ عنها ولا تؤذيها، حتى حضر الحاج أبو موسى الدويري أحد أتقياء ذلك الزمان وقال: «الله أكبر على من طغى وتجبّر!» فسقطت الحية إلى الأرض جثة هامدة بين رجلي الرجل. وفي اليوم التالي أُذيع نبأ سقوط السلطان عبد الحميد عن عرش بني عثمان.

وهكذا تكون الحية من رموز الرؤى والتنبؤ بالغيب في الميثولوجيا اللبنانية، كما هي في سائر الميثولوجيات العالمية.

ويقول أبو خليل العرك إن رجلاً من أهل البر والتقوى، من سكان محلة زقاق البلاط، كان يرى رؤىً في منامه لا تلبث أن تحقق في نهاره. وحدث أنه رأى في منامه، في إحدى ليالي ١٩١٢، حية تبتلع دجاجة. ثم رآها في الليلة التالية وهي تبتلع خروفاً. وما لبث أن رآها في ليلة ثالثة وهي تبتلع بقرة. فتشاءم الناس وحسبوا لحلم الحية التي ابتلعت البقرة ألف حساب. وذهب مَن يُخبر والي بيروت العثماني حازم بك أفندي، خبر الحية التي ابتلعت البقرة، فقال: «هذه أضغاث أحلام!» ولم يعطِ الموضوع أي اهتمام.

لكن رؤيا الرجل ما برحت أن تحققت وهاجم الأسطول الإيطالي ميناء بيروت، بعد أيام، وأغرق الطراد «عون الله» والنسافة «أنقرة» وأودى بحياة أكثر من مئة قتيل.

* * *

واشتدّ، ذات صباح، تبادل القصف بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية، صيف ١٩٨٩ وخرج الناس على وجوههم طلباً للنجاة. ووصل رجل مع زوجته وأبنتيه، منهوك القوى، إلى حافة نهر الدامور، جنوباً، وحطّ رحاله ريثما يهدأ روعه. وكان هنالك نوري ابن حلال يضرب خيمته قريباً، وهو ما لبث أن جاء ورحب بالرجل وعائلته، ثم قال إن حية «أم قرون» تعيش في مكان قريب وتخرج ليلاً في طلب الرزق، لكنها مسالمة لا تؤذي إلا مَن يؤذيها، ولا بدّ أن تسعى لسؤال

الخاطر، فلا تحاولوا أن تكدروا خاطرها، لأنها مؤتمنة ولا تخون الأمانة إلا في حال الاعتداء عليها.

كان الراوي يروي لي حكاية هذا الرجل المسكين الذي «صفّى النيّة.. ونام حدّ الحية،» مع عائلته، بكفالة نوري اندبوري، فقلت، إذا كان المتنبي أكثر فهماً من والدتي في أخلاق الناس، فإن نوري نهر الدامور، هو ولا شك، أكثر فهماً من المتنبى في اخلاق الحيّات.. متى صفت نوايا الناس.

نطق المثل، بطل الجدل

بعد غياب ثلاث سنوات في فرنسا رجع ناصر ومعه زوجة فرنسية وابنة صغيرة شقراء.

واختلف القوم هنا، بين مستنكر ومستهجن، وبين راضٍ على مضض حتى جاءت أخيراً أم سعد الدين، وهي قابلة عتيقة تتكلم بعينيها، ثم تؤكد رأيها بشفتيها. وتناولت الإبنة وتفحصتها ودسدستها وشقلبتها وقاستها بأصابع يمناها.. وما لبثت أن كرستها بقبلة حارة وقالت:

«يا أبو ناصر، المثل قال:

«غَيِّر بذارك، ولو من عند جارك!»

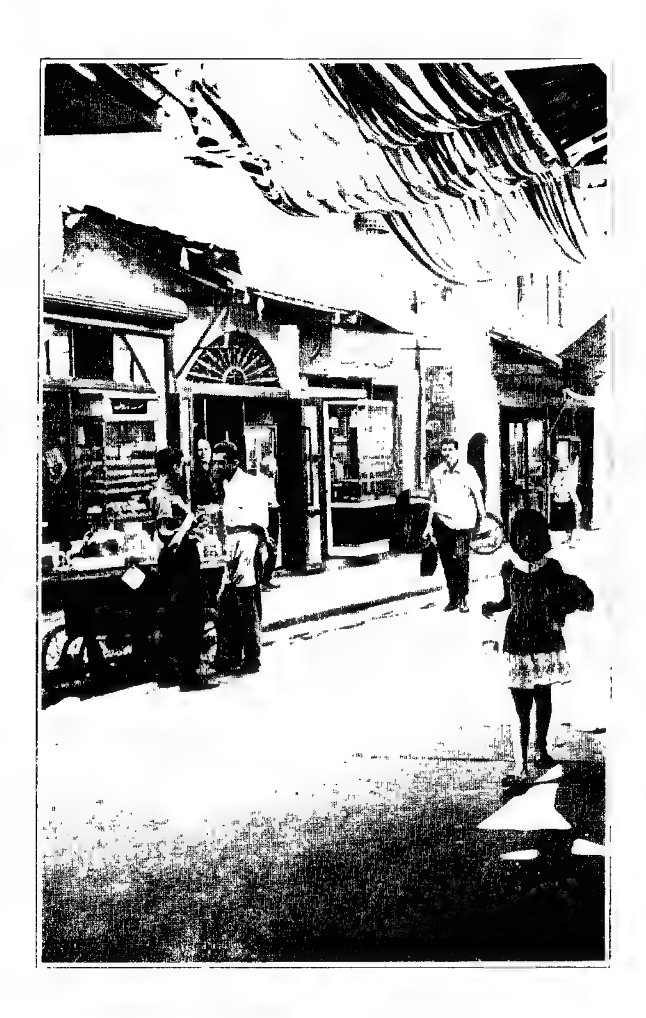
الباب الثاني:

قراءات في وجوه النّاس

... وَبقيت بَيرُوت

أما الآن ، وقد طحنت الحرب أكثر أحياء بيروت الشعبية، وصار شارع الخندق الغميق من ذكريات الماضي، ولأنني أعيش الآن ذكرياتي، أكثر مما أعيش حاضر حياتي، لذلك رجعت بالذكرى إلى شارع الخندق الغميق، الذي كان سبيلي إلى مكتبي في مصلحة التعمير، وإلى مكاتب نقابة الصحافة وبعض النوادي والمكتبات. وبالتالي إلى كاراج مرجعيون حيث كان يلتئم المقيمون والوافدون من أبناء الجنوب.

وكان أبو موسى صاحب الكاراج يملأ ذلك المكان.. وذلك الزمان، فبالإضافة إلى هيمنته على عشرات السائقين ودالته على أصحاب الحوانيت والبسطات المجاورة، كان صاحب الكلمة الفصل في المحلة. فإذا تشاجر بائع أوراق اليانصيب مثلاً مع ماسح الأحذية، وحضر أبو موسى، انصرف الخلاف ومضى كل واحد في سبيله، وإذا تشاتم سائقان بسبب أفضلية المرور، وقال أبو موسى كلمته سكت الجميع وانتهى الإشكال في الحال.



وكان مكتب أبي موسى، في داخل الكاراج، لا يخلو عادةً، من مجلة أو جريدة أو كتاب.. ومن معلم مدرسة أو شاعر من الجنوب أو مرشح مزمن للنيابة أو جاويش دركي متقاعد أو صاحب بكالوريا يسعى في طلب وظيفة.

لكن الصبي الأعرج برهوم، بائع لصحف المتسكع قرب باب الكاراج كان أكثر الناس حضوراً حول أبي موسى. وكان أبو موسى يعطف عليه ويسعى له في بيع صحفه على زبائن الكاراج. وكنت كلما اشتريت منه جريدة شعرت برضى أبي موسى عليَّ.

* * *

توالت السنوات بالعشرات، وتلاحقت الويلات ودرست الحرب بعض أحياء بيروت، وبعض مكاتبها ونواديها ومكتباتها.. وبقيت ذكرياتها.

ورأيتني ذات صباح وقد خفّت حدة الاقتتال على خطوط التماس، أُغامر بالتوجه إلى شارع الخندق الغميق أبحث فيه عن ذكريات عشرين سنة خلت. ولعلمي بوجود علاقة بين سوء الحال وكثرة المسابح في أيدي الرجال، عرّجت على سوق المسابح في شارع عبد العزيز واشتريت مسبحة شعبية خضراء حملتها بيدي كجواز مرور ورفعاً لكل محذور، وطرقت الخندق الغميق من جهة «عَسُّور»، بلغة أهل المحلة.

ولم أتوغل كثيراً حتى قوطب عليَّ رجل ملثم وقال: «مرحباً بو أنطون».

قلت: «لو كنت أنا بو أنطون، كما تظن، هل كنت أتجاسر على المجيء إلى هذا المكان.. في هذا الزمان الذي غربل القمح من الزوان!»

فابتسم الرجل الملثّم عن أربعة أسنان مذهبة وقال: «رُوح! عليك الأمان مين ما كنت كون».

قلت لنفسي، طالما أنا لست، إذاً، بوأنطون وطالما تلطف هذا الرجل المصون وأعطاني الأمان. فلأتابع طريقي بكل اطمئنان.

وبينما أنا أتبين معالم الدمار اعترضني رجل سلّم عليَّ وكأنه يعرفني، أو كأنه من أبناء إقليم التفاح في الجنوب، الذين يسلمون على مَن يعرفون وعلى مَن لا يعرفون لأن، السلام من شِيم الكرام، فسَوبقت عليه بالكلام، قلت: «وما هو اسم هذا الشارع يا أخ؟»

قال: «هذا شارع خندق الغميق الذي ربما غيرت الحرب بعض معالمه حتى أنك صرت لا تعرفه».

قلت: «هذا هو اسمه الآن، ولكن ماذا كان اسمه قبل الحرب.. قبلما خندقته القذائف وغيرت معالمه، كما ذكرت وجعلته خندقاً غميقاً بكل معنى الكلمة».

قال: «اسمه الان خندق الغميق ولكن من يعلم ماذا سيصير اسمه إذا استمرت الحرب على ما هي عليه الآن».

كانت هنالك بعض الجدران المتداعية. وكان الركام يغطي بعض الأرصفة، وكانت ثمة حفر كثيرة في عرض الشارع الذي غيرت الحرب بعض معالمه.. لكن خيّل إليّ أن الناس في الشارع، هم الناس إياهم، كما عهدتهم منذ عشرين سنة ونيف.

وكان هنالك رجلان يتبادلان التهديد والوعيد. الأول يحمل بيده خشبة والثاني يرفع بيده قسطلاً وحولهما رجال يتدخلون مصلحين وهم يتدافشون ويتعيطون ولا يفعلون شيئاً. قلت، يا عازتنا إلى أبي موسى، لو كان أبو موسى ما زال حياً لحسم الاقتتال بكلمة تقال أو بتدخل فعال، كما يفعل الرجال.

وانحرفت يميناً ومشيت على عجل، فارتاب رجل بأمري - لعله لم يرَ المسبحة الخضراء في يدي - وتبعني وسألني عما أريد. قلت: «أريد أن أزور أبا موسى في كاراج مرجعيون».

قال: «تزور أبا موسى! في كاراج مرجعيون، وين عقلاتك، روح الله يشفيك».

فرحت أبحث عن عقلاتي في الزواريب الضيقة. ورأيتني أقف فجأة أمام رجل أعرج يبيع صحفاً. ورأيت كما يرى النائم، الصبي الأعرج برهوم، إياه، بائع الصحف منذ عشرين

سنة. في باب كاراج مرجعيون.. وقد كبر وصار رجلاً وهو ما زال يتسكع في شارع الخندق الغميق ويبيع الناس.. معرفة.

فاشتريت منه جريدة.. وشكرت الله لأن الحرب تجرأت على المعالم.. وتورعت أمام صبي أعرج ما فتىء ينشر المعرفة على الناس في شوارع بيروت.

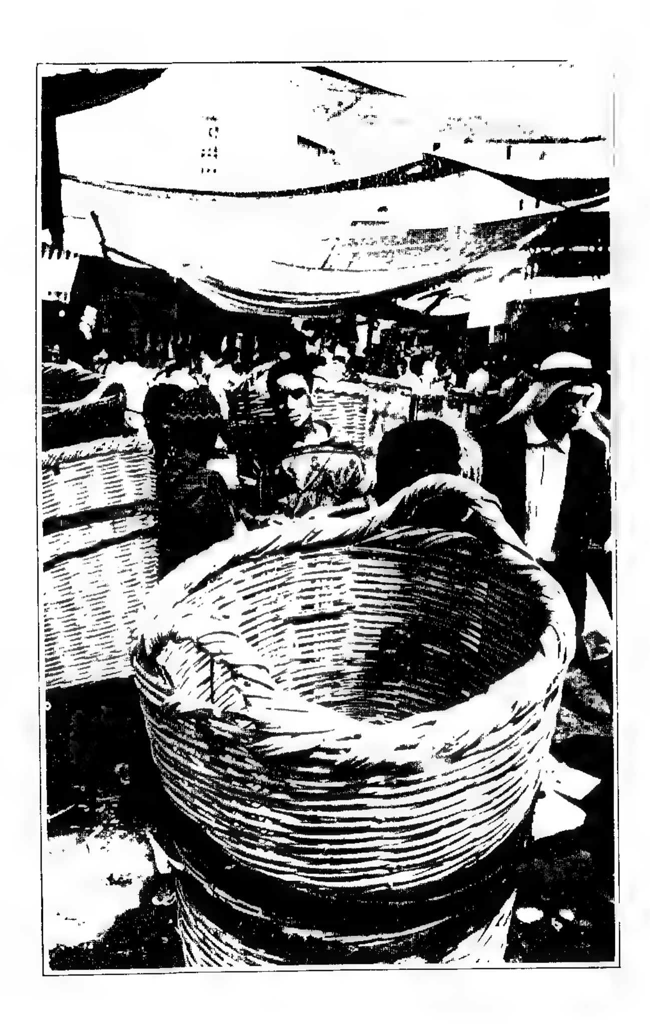
وبقيت المعرفة.

وبقيت بيروت.

"عَالوَعـدِ يا كمّون!"

كان بعض أبناء جنوب لبنان ما زالوا يشربون من مياه البرك الراكدة حين قررت إحدى الحكومات في بيانها الوزاري أنها ستؤمن مياه الشرب إلى كل عطشان، بما في ذلك جنوب لبنان. ومضت الحكومة قدماً في تنفيذ بعض مشاريع الري في محافظة جبل لبنان، دون جنوب لبنان، فقال أحدشعراء الزجل، عبد اللطيف سليمان:

صيف وشتا عافرد سطح. جنون
صح المثل إن «الجنون فنون»
أهل الجبل «عالراس قبل العين»
وأهل الجنوب «عالوعد يا كمون»



الرّبح الحَرام لأولاد الحَـرام

قبل تدمير أسواق بيروت التجارية، في معارك الحرب اللبنانية، كان عليك، إذا كنت من شاربي الدخان «الفَلْش»، وارد جبل عامل، أن تجتاز ساحة الشهداء مروراً في سوق «أبو النصر» حتى أوّل «سوق النورية»، فإذا استطعت أن تصل بخير في خضمّ خلق الله المتدافشين، من بائعين ودلّالين وحمّالين ونشّالين وبطّالين ومهرّبين، بالإضافة إلى زوّار مقام «النوريّة» المقدّس، إيفاءً للنذور أو حرق البخور على نوايا المؤمنين.

كان عليك ـ إذا وصلت بخير ـ أن تشكر الله، وأن تقف برهةً أمام دكان الحاج معتوق، إلى أن يفطن إليك صاحب الدكان، لأنه قد يكون، آنئذٍ، مشغولاً بكتابة آية كريمة أو بيت من الشعر أو مثل شعبي أو قول مأثور، على لوح كرتون، لأن الآيات الكريمة والأقوال الحكيمة تنطق بالنوايا السليمة.

ولا تنسَ أن تبادر الرجل بالسلام ـ لأن «السلام قبل الكلام من شِيمَ الكرام»، (تلك كانت إحدى اللياقات التي علّمنيها الحاج معتوق) ولا يتكدّر خاطرك إذا سألك عن اسمك واسم

هويتك، وصولاً إلى معرفة طائفتك، ثم استكمل أخذ إفادتك حتى يتأكّد أنك لست من رجال التحرّي، فيتناول، حينئذٍ، من مخبأ سرّي، خلف صورة «الخضر» عليه السلام. رزمة من الدخان ويقول:

«هذا من دخان ميس الجبل مشروب أحمد جمال باشا الذي كان يتموّن به بواسطة صديقه الشيخ أسعد الشقيري».

فإذا ارتاح إلى اسمك وكسمك أزاح صورة عنتر بن شدّاد وتناول من ورائه رزمة وقال: «هذا من دخان جبل الريحان الذي أهداه حبيب بك ناصيف إلى السلطان محمد رشاد خان».

وإذا أنس منك استئناساً بحديثه استرسل بالكلام ، لأن ترويج مروياته كان أهمّ من ترويج بضاعته، فتناول من تحت كيس البخور أو من وراء صندوق الشمع رزمة جديدة وقال:

«وهذا من دخان كفر رمّان الذي قال عنه الحاكم الفرنسي «سولومياك»: «ثلاثة أشياء لا مثيل لها: أرز لبنان. ونبيذ كسارا.. ودخان كفر رمان!»

ولا موجب للقول، بعد هذه المقدمة الطويلة، أن الرجل كان صديقي، فأنا، ولا عجب، مُعجب بمثل هذه النماذج الفذّة من الرجال، ولا سيما أن الرجل كان كلما وقفت في بابه تناول من مخبأ وراء شعار «المال الحرام لا يدوم» رزمة من

الدخان الفلش، الذي كان مشروبي في ذلك الزمان، وأكّد لي أنه خبّأها لي واختصّني بها دون سائر زبائنه، والله أعلم.

ولم يكن عندي خيار غير تصديق كلامه، مع الشكر، لأن ما كان يعنيني عنده، أكثر من الدخان الفلش وارد حبل عامل، هو الطرائف التي كان يخبئها لي، من وقت إلى آخر.

وحدث يوماً أنني دفعت إليه ثلاث ليرات، وضع ليرتين منها في الجارور ووضع الليرة الثالثة في علبة كرتون. فسألته عن سرّ الليرة الثالثة.

قال: «إنها ليرة الربح الحرام».

قلت: «وماذا تفعل إذاً، بالربح الحرام؟»

قال: «أتقّي به شرّ «أولاد الحرام»، كما لا خفاك الأمر».

ثم استطرد الحاج معتوق وقال: «يقول الإمام عليّ كرمّ الله وجهه:

«لكلّ امرىءٍ في ماله شريكان: الوارث والحوادث».

ولو جاء الإمام عليّ الآن إلى لبنان لقال:

لكلّ امرىءٍ في ماله ثلاثة شركاء: الوارث والحوادث.. و «أولاد الحرام».

قلت: «بالإذن من الإمام عليّ، أنا أخشى يا حاج، إذا بقي الحال على هذا المنوال أن يتّفق أولاد الحرام والحوادث ويأكلون نصيب الوارث».

قال: «يرحم أباك! سبقتني إلى هذه الفكرة». وناولني حارة «لفّ يدّ» من وراء شعار «الحسود لا يسود» مكافأة لي على نباهتي.

ثم سألته كيف توصل إلى مفهوم «الربح الحرام إلى أولاد الحرام».

قال: «كان المرحوم جدّي الحاج معتوق الكبير رجلاً راجح العقل بعيد النظر. وكان يوصيني أن أجعل، بالرضى نصيباً من مالي إلى أولاد الحرام، ولا سيما أنني أتعاطى عملاً لا مناص لي فيه عن مراعاة خواطر أولاد الحرام، «وفهمك فيه الكفاية»

قلت: «رحمة الله على جدّك، لعلّه كان من حكماء زمانه».

فانشرح خاطر الحاج معتوق واستوى في مجلسه وبسمل وقال:

- «في ذلك الزمان كانت جمعية الاتحاد والترقّي تناوىء السلطان عبد الحميد وتطالب بالدستور.. والسلطان عبد الحميد هو أمير المؤمنين، والدفاع عنه كان من واجبات المسلمين، فراجت يومئذٍ «خماسيّة الداودي» التي مطلعها:

تمادت عصبةُ الأشرارِ شراً على سلطاننا سِراً وجَهرا
ولكنَّ الإلـه أتـاهُ نصـرا وإن قالوا لك: «الدستور أحرى»
فشمِّرْ، يا حماك الله، واخْـ..

وكان على كبار القوم، في ذلك الزمان، أن يحفظوا هذه

الخماسية، غيباً، وأن يستشهدوا بها في معرض إظهار ولائهم للسلطان. غير أن جدّي الذي كان تقياً نقياً نظيف اللسان. . .»

وحدث آنئذٍ، أنني عطستُ. . فاعتذرت، خشية أن أكون عوكرت عذوبة حديث الحاج معتوق. لكن الحاج معتوق الذي لاءمت عطستي هواه قال: «**هذه شهادة من ابن حلال**».

وتابع الحاج معتوق كلامه فقال: «كان جدّي تقياً نقياً نظيف اللسان ولذلك كان يأبى أن يتلفّظ بآخر كلمة في المقطع لأنها كلمة بذيئة».

وجاءت مناسبة «عيد الجلوس» أي عيد جلوس السلطان عبد الحميد على عرش بني عثمان، وتوافد القوم، ومنهم جدّي إلى السراي، في بيروت، لتهنئة الوالي العثماني بالمناسبة. وراح الوالي يستدرج المهنّئين إلى التغنّي «بخماسية الداودي»، فتريّث جدّي وتوقف قبل آخر كلمة في المقطع.

فسأله الوالي لماذا توقف دون إتمام الكلام!.

قال جدّي: «حاشا الله أن تُلفظ بعد اسمه الكريم كلمة بذيئة».

فأُعجب الوالي ببداهة جدّي وأنعم عليه بوسام همايونى».

وحانت مني، في تلك اللحظة، عطسة ثانية مفاجئة، فقال الحاج معتوق:

«وهذه شهادة ثانية من ابن حلال».

قلت: «ومتى تكون العطسة شهادة من أبن حلال؟»

قال: «ألا تعلم أن الله موجود في كل مكان، وهو يسمع كل كلمة تقال، فإذا كان المتكلّم صادقاً، ألهم الله «ابن حلال» ما أن يعطس، فتكون العطسة شهادة على صدق كلام المتكلّم».

ورجع مرجوع الحاج معتوق إلى جمعية الاتحاد والترقي، قال: «إنها ما لبثت أن انتصرت، وسقط عبد الحميد، وبقي جدّي يتوسّم الوسام. وفيما كان يخرج ذات مساء من «قهوة القزاز» في ساحة البرج، التي صار اسمها «ساحة الشهداء» تقدّم رجل وانتزع الوسام من صدر جدّي ورماه وداسه بقدمه. فاشتبك جدّي معه في معركة انتهت بطعنة قاتلة في صدر جدّي».

قلت: «رحمة الله على جدّك الذي سقط شهيد المبدأ السليم، ولو قيّض للسلطان عبد الحميد أن ينتصر على جماعة الاتحاد والترقّي، لكان جدّك من عظماء ذلك الزمان. . وكنت أنت الآن، ولا شكّ، صاحب جاه وجهجهان، لا بائع شمع وبخور ودخان في سوق النورية، وصاحب خبرة في معرفة أولاد الحرام من أبناء الحلال».

وحاولتُ حينئذٍ أن افتعل عطسة ثالثة، تأكيداً لصدق كلامي، واثباتاً لكوني «ابن حلال». لكن العطسة «روكبت» في داخون سقف أنفي، فخانتني يميني.

"في البدء كان الكلمة"

ضلّت حيّة غشيمة طريق بيتها، ودخلت بيتنا في إبل السقي، وضلّلتنا واختبأت في مكانٍ ما فيه. وشاع الخبر في القرية فهرع الأقرباء والجيران لتبادل الآراء معنا في أيسر السبل إلى قتلها.. أو طردها بالتي هي أحسن.

وما لبثْ جارتنا سعيدة الصّباغ أن أقبلت ومعها هرّها «زمهر» الذي سبق له أن فتك بحيّة «أم قرون»، وقالت سعيدة: «زمهر يتكفّل بأمر الحيّة، وبإمكانكم أن تناموا، الليلة، بإشراف زمهر مرتاحي البال».

وقبل أن تُطلق سعيدة هرّها زمهر في بيتنا، أمرتنا أن نُغلق الأبواب والشبابيك، وما أن رأى زمهر جميع الأبواب والشبابيك قد أُوصدت دونه حتى انطلق يعرّ ويكرّ ويفرّ ويقتحم الشبابيك والأبواب والشرر يتطاير من عينيه، ولما بلغت خشيتنا من زمهر أكثر من خشيتنا من الحيّة فتحنا له الباب ليفارقنا فراق الأحباب.

ثم دخلت رفقة رشيد وهي «قابلة» لها سلطان على النسوان، لأن أكثرهن مررن من «تحت يدها»، وقالت للنسوة المتجمّعات عندنا، بالمناسبة: «عليكنَّ بالثوم! فرائحة الثوم تطرد الحيّة». وجاءت والدتي بكل ما كان عندنا من مؤونة الثوم ووضعته في تصرّف العمّات والخالات اللواتي قشّرنه ووضعنه في أوانٍ ووزّعنها في مختلف أرجاء البيت وتركن الأبواب والشبابيك مشرّعة ظنّاً منهن أن رائحة الثوم ستطرد الحيّة، فتجد لها مخرجاً منه بسلام.

ولكن رائحة الثوم كادت تخرجنا نحن من بيتنا. وكان البرد قد تمكن من أُنوفنا ورئاتنا ورحنا نعطس ونسعل حين دخل عمّنا فارس الراسي وبيده «جفت عربي كبسون دكّ» سنده جانباً وأهاب بالنساء أن تنصرف كل واحدة منهنَّ إلى بيتها إذ لا رأي للنساء في الضرّاء، وجمع أواني الثوم ورماها خارجاً وقال: «الثوم لا يطرد الحيّة من البيت، بل يطرد الرجل عن زوجته، لذلك تصفه القابلة للمرأة المولّدة لكي تطرد رائحة الثوم زوجها عنها فلا يقربها حتى يبرأ جانبها».

وأضاف عمّنا فارس أن عمّنا الخوري الياس رحمة الله عليه، كان يطرد القابلة من الكنيسة، لأن رائحة الثوم المعششة في ثيابها تطرد الملائكة وتفسد تقوى المؤمنين.

وقال إن الحيّة هي أخت حوّاء، عندها مكر ودهاء، ولا تعالج بالاسترضاء بل بالقهر والجفاء.

ودخل عمّنا المذكور بعد هذه المداخلة في علم الحيّات والنساء، إلى المطبخ وتناول مقلى قلى فيه ثلاث أربع بيضات بالزيت وجاء بالمقلى ووضعه في باب المطبخ! وناولني الجفت وقال: «الجفت مدكوك بارود وخردق حوّاش» يفلش في كل اتجاه، وستخرج الحيّة من مكمنها على رائحة البيض المقلي، وعليك أن تكمن لها، وَيَدُكَ على الزناد، حتى متى شعرتَ أو سمعتَ أو رأيتَ المقلى يتحركّ، أكّدت أن الحيّة صارت في متناول يدك فتطلق النار باتجاه المقلى وتجد الحيّة مقتولة فوقه بإذن الله.

وفارقني عميّ بعدما اطمأنّ إلى أمري وقبعتُ في إحدى الزوايا وركّزت أصبعي على الزناد مُتخذاً جانب الحيطة والحذر لأن خوفي من الجفت كان أكثر من خوفي من الحيّة.

حتى ذلك الزمان كانت صورة عنتر على حصانه الأبجر تتصدّر صالون بيتنا، لأنه كان يذكّر والدتي بوالدها الذي تقول أنه كان يتبختر بشاربين يُشبهان شاربي عنتر ويتقلّد سيفاً أبتر، ويتغندر فوق صهوة حصان أبيض سمّاه «الأبجر». لذلك توجّهت إلى جدّي الطيّب الذكر المتمثّل بصورة عنتر، بضراعة حارّة، قلت:

«يا جدّاه، يا راعي الأبجر، أَغثني في محنتي! أَنجدني في كربتي! ويا عنتر ابن شدّاد، يا طويل النجاد، يا رفيع العماد، أَعطني القوّة والسداد...»

وشعرتُ، آنئذٍ، بارتياح لأن صورة جدّي تجمهرت في خاطري، ولأن عنتر بدا لي وأنا أرفع إليه ضراعتي وكأنه في حالة استنفار عند الاضطرار.

وكان النعاس قد بدأ يراودني ورائحة الثوم ما زالت تخدّرني، فارتخت يدي فوق الزناد، فانطلق البارود عشوائياً، وإذا بعنتر ابن شدّاد يسقط فوق المقلى مضرّجاً بطراطيش البيض والزيت، وإذا بشظايا زجاج الصورة يملأ أرجاء البيت...

وقبل أن نفرغ من تنظيف المكان من آثار العدوان دخل أبو خليل وقال: «إسأل مجرب ولا تسأل حكيم»! الحيّة لا تخرج من البيت إلا بإرادة الله وبموجب حجاب من «صاحب طريقة» لإخراج الحيّات، وهذا ما اختبرته بنفسي، فقد دخلت بيتنا حيّة في الصيف الماضي - قال أبو خليل - واختبأت في كوارة الشعير. وجاء بعض الإخوان يتباصرون معنا في إمكانية قتل الحيّة بأقل خطر ممكن. ودخل أمين الصفاوي وقال: «يا أبو خليل، الحيّة هي الآن دخيلة عندك ولا يحقّ لك أن تقتلها في بيتك، ولربّما، إذا حاولتَ قتلها الآن، ارتدّت عليك وقتلتك - أو ربّما جاءَت ابنة هذه الحيّة وأخذت بثأر أُمّها منك، بعد عام أو بعد خمسين عام - والرأي هو الآن - قال أمين الصفاوي - أن تذهب في الحال إلى قرية «الغجر»[١] وتطلب من الشيخ عبد

(١) الغجر قرية سورية تقع شرق جنوب بلدة الخيام اللبنانية.

الله رقية أو تعويذة تخرج الحيّة من الكوارة دون أن تؤذيك أو تؤذيها».

فتوجّهت في الحال - أضاف أبو خليل - إلى قرية الغجر، مع «شوفة خاطر» إلى الشيخ عبد الله، وهو رجل مرهوب «صاحب طريقة» فكتب لي حجاباً مربّعاً غلّفه بغلاف جلد ناعم وطلب منّي أن أفتح باب بيتي في المساء، وأن أُعلّق الحجاب في مفتاح الباب فتخرج الحيّة بأمان. ولم ينسَ الشيخ عبد الله أن يوصيني أن لا أقتل الحيّة أو أُسبّب لها أي إزعاج وهي خارجة من بيتي، لأنها تخرج بإذن الله»...

وقال أبو خليل أنه فعل حسب تعليمات الشيخ. وقبيل منتصف الليل سُمع فحيح الحيّة وهي تخرج من الباب بأمان. وهي حية حمراء «علقمية» ما زالت تعيش في حمى أبي خليل فإذا ما رأته من قريب تهادت وتوارت خلف شجرة الرّمان.

وعندما أنهى أبو خليل مطالعته وقبلتُ نصيحته سألته عن مصير الحجاب، قال إنه ما زال يحتفظ به، قلت: «ولماذا لا تعيرنا الحجاب، إذاً، فنعلّقه في مفتاح بابنا، فتخرج الحيّة من بيتنا، فلا نؤذيها ولا تؤذينا، ولا يعود بيننا وبين بناتها وبنات بناتها ثأر دفين حتى عشرات السنين... ولربّما كان بين حيّتنا هذه وحيتك حسب ونسب، ويتوجّب عليك إذاً، إكراماً لخاطر حيّتك «العلقمية» أن تسعى في خلاص نسيبتها حيّتنا، فيصير بيننا وبين الحيّات ميثاق شرف مدى الحياة».

وما أن أنهيت مطالعتي حتى نهض أبو خليل ومضى، ورجع معه الحجاب وعلّقه بمفتاح الباب، فشكرته وأكرمته.. حالما توارى تناولت الحجاب وفضضت غلافه وقرأت ما فيه:

يا «جباوي» لبِّينا
اللي برّا ما يجينا
واللي جوّا ما يئذينا
و «سورة يس» تحمينا

فصحتُ: «ومَن هو هذا جباوي الذي يُخرج الحيّة من الكوارة؟ وهل تراه يكون أطول نجاداً وأرفع عماداً من عنتر ومن جدّي راعي الأبجر؟»

وصار الجباوي هذا همّاً جديداً أنساني هموم الحيّات ونصائح الأقارب والجارات، وتعتّقت القضية بضع سنوات حتى سمحت لي الظروف أن أذهب إلى قرية الغجر وأزور الشيخ عبد الله وأسبر أغوار بعض المفاهيم والمعتقدات.

وبعد مقدّمة مهيّأة سلفاً لإظهار حسن النيّة سألت الشيخ عبد الله عن موقع الحيّة في المفهوم الشعبي وفي القَصَص الديني، فقال: «إقرأ الكتاب تجد الجواب! فالحيّة هي ربيبة الشيطان، لعنة الله عليه. فقد لبس الشيطان ثوب الحيّة. منذ الأزل، وانتحل شخصها وأغرى جدّتنا حوّاء بعصيان إرادة الله عزّ وجلّ. لذلك يُفترض في كل حيّة أن يكون الشيطان في

داخلها، ولا سيّما الحيّة التي تدخل البيت عُنوة لا اضطراراً، فقد يكون الشيطان في قميصها، ولا تخرج من البيت، حينئذٍ إلا بإرادة الله، وهو على كلّ شيء قدير. لكن لا تنس ـ أضاف الشيخ عبد الله ـ أن الحيّة ذكيّة وحكيمة، فهي تعرف صديقها من عدوّها. ويقول كتاب النصارى ان عيسى ابن مريم عليه السلام، قال لتلاميذه: «كونـوا حكماء كالحيّات»[٢]. وهنالك تعويذة (رقية) خاصة تربط الحيّة بميثاق ولاء مع الرجل، شرط أن تكون الحيّة معروفة وموصوفة ولها محل إقامة، ويكون الرجل معروفاً وموصوفاً وموثوقاً به.. ولا توجد تعويذة تربط المرأة مع الحيّة، برباط ولاء، لأنك لا تستطيع أن تجمع شراً مع شرّ وينتج عنه خير».

قلت: «وكيف تقدر كلمة مكتوبة، مثلاً، في قرية الغجر أن تخرج حيّة من كوارة في قرية إبل السقي؟».

قال: «ألا تعلم أن «الكلمة» هي البداية، وأن الله تعالى خلق الكون بالكلمة. قال: «كُنْ»، فكان الكون! ألا تقدر الكلمة المكتوبة إذاً، وبإرادة الله، ولعمل الخير، والموسومة باسم أحد الأولياء أن تخرج الحيّة من الكوارة؟»

فسألته: «ومَن هو «جباوي» الذي تستعين به لطرد الحيّات من البيوت؟»

(٢) «كونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام» (انجيل متى اصحاح ١٠ عدد ١٦).

قال: «هو سعد الدين جباوي[٣] أحد الأولياء الصالحين سيد طريقة يُستعان بها لطرد الحيّات من البيوت».

ثم سألته لماذا يلتمس «سورة يس» دون سواها من سُوَر القرآن الكريم، قال: «استناداً إلى الآية الكريمة في سورة يس»:

﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون﴾.

(٣) هو الشيخ سعد الدين جباوي المنسوب إلى قرية جبا في سوريا ومؤسّس الطريقة الجباوية في التصوّف. توفي سنة ٦٢١ هجرية.



الغول ذكر

أم أنثى؟

الغـُول! الغـُول!

كان الغُول، في أيّام حداثتي، على كل شفة ولسان ولا سيما في دنيا الأطفال حين كان كلّ طفل مهدّداً بالغول إذا عاكس والدته أوشاكس جدّته. ثم بدأ الغول ينحسر تدريجاً حتى انطفأ خبره. وبقي منه المثل الشعبي القائل:

«الغول أكل كل الناس إلاّ مرتو!».

وخطر لي أن أستقصي مصير الغول عن شفاه عتاق الرجال والنساء في مختلف المناطق اللبنانية، فلم أحظَ بمَن رآه أو عرف شيئاً عمّن رآه ما عدا امرأة من عجائز بلدة جون ـ الشوف ـ قالت إن الغـول اختفى نهائياً منذ وطئت أقـدام الفرنسيين بلادنا «سنة العشرين». وكان آخر مَن رآه عمّ والدي ـ قالت عجوز جون ـ الذي كان يعبر في محلة «وادي الزانية»، بعد منتصف إحدى الليالي، ورأى الغول، فجأةً، منتصباً أمامه، فبادره بالسلام، فقال الغول:

«لولا ما سلامك سبق كلامك، كنت «فصفصت» لحمك عن عظامك!»

يقال إن كلمة «اغتيال» مشتقة من «غول». لأن الغول كان يغتال الناس، وما زلنا نسمّي كل جريمة غدر «اغتيالاً».

وكان الغول في لبنان ذكراً. لكنه كان انثى في الميثولوجيا عند العرب، ويذكر المسعودي في كتاب «مروج الذهب» أن الرجل في الجاهلية كان «يباضع» الغول ـ كون الغول انثى ـ غير أن الغول كانت، من حسن الحظ، لا تحبل من مباضعة الرجل لها. لذلك بقي نسلنا سليماً والحمد لله.

وتروي كتبنا الأدبية أن الشاعر العربي ثابت بن جابر الفهمي، اعترضته غول ربما ارادت مباضعته فأبى، واستلّ سيفه وذبحها وقطع رأسها وحمله تحت إبطه، إلى عشيرته، برهاناً على طهارة ذيله، فسمّوه «تأبّط شرّاً» إلى يومنا هذا.

ولما كان كل شيء عندنا «غير شكل» ، لذلك كان غولنا ذكراً. . وغول الآخرين انثى. وكان غولنا، وهو ذكر، يتردّد، كما الرجال، على «وادي الزانية»، ربما لأن الزانية صاحبة الوادي كانت «نفسها قطيّعة».

وكانت غول الأخرين، وهي انثى ـ مثل كل امرأة ـ إذا استفردت رجلاً اغتالته. . أو «باضعته»، ولا سيما إذا كان مِمَّن يُجرّ عليهم سلاح في الليالي الملاح.

لكن غولنا ـ على عهدة عجوز جون ـ كان يفهم معنى «السلام قبل الكلام». وربما، لهذا السبب لم يُطق الإقامة في ما بيننا، سامحه الله.

موسى الماردِيني

لا بدّ أن يَصِلَ أخيراً

«**أكبر موجب للقلق، أن أخلو يوماً من القلق**». هكذا يقول أحد الفلاسفة، فإن العقل السليم لا يمكن أن يخلو يوماً من القلق، فإذا خلوتُ يوماً من القلق وجب عليَّ أن أشكّ بسلامة عقلي، وهذا هو أكبر موجب للقلق.

آمنتُ بفلسفة القلق هذه منذ خمسين سنة ونيّف، وصرت كلّما استحوذ عليّ القلق يزداد اطمئناني إلى سلامة عقلي، فإذا شعرت بخلو عقلي من القلق، أبحث حالاً عن قلق جديد، أينما وكيفما حظيت به، حتى صار البحث عن هموم الآخرين من همومي الخاصة.

وحدث يوماً، بعد أن فرغت من تصحيح مسودة إحدى مكتوباتي، وفككت مشكل صديق لي مع زوجته، لأنه لا يؤمن، وهي تؤمن بفعل الخرزة الزرقاء في ردع الإصابة بالعين الفارغة، وطيّبت خاطر امرأة رأت سلفتها في منامها، وعجوز فقدت وجبة أسنانها في إحدى عجقات القصف المجنون.. بعدما أنجزت هذه المهام الكاذبة، شعرت بفراغ

خشيت أن يتطوّر معي إلى خلوّ من أي قلق، ورحت أبحث عن قلق جديد يؤكّد لي سلامة عقلي.

قلت، وهذا الرجل العجوز الذي لا ينفك يعبر يومياً في مثل هذه الساعة أمام منزلي وئيد الخطى، لا يلتفت ذات اليمين ولا ذات اليسار، كأنّه إيّاي عندما أمشي في الشارع وفي ذهني حكاية أحاول إقفالها بمثل شعبي أو تركيب ذيل لها من حواضر البيت، فإذا عبرت أمام صديق عتيق تجاهلته.

قلت، هذا الرجل العجوز المتثاقل الخطى، لا بدّ أن يكون عنده همّ أضيفه إلى همومي المعتّقة. فكمنتُ له حتى عبر وتبعته حتى نزلة الحمام العسكري، في رأس بيروت، حيث التفَّ على نفسه وجلس على الرصيف وأشعل لفافة، فجلست إلى جانبه متأدّباً وسألته إذا كان يعرف سلام الراسي، أو يعرف مَن يعرف عنه شيئاً.

قال: «وماذا يشتغل سلام الراسي هذا؟»

قلت: «إنه يشتري هموم الناس!»

فحاول الرجل أن يبتسم بصعوبة، لعلّه لم يبتسم منذ زمن بعيد، وقال «لعلّ صاحبك هذا نبي.. أو غبي، فالنبي يشتري هموم الناس ليريحهم منها، والغبي يشتري ما لا يحتاج إليه».

قلت: «لو فكّرتَ قليلاً يا أخي، لوجدت أن رجال السياسة يتاجرون بهموم الناس، وكذلك بعض التجار وبعض رجال

الدين، وسلام الراسي هذا يشتري هموم النـاس بالمفـرّق ليبيعها في ما بعد بالجملة، وأنـا أبحث عنه الآن لأبيعـه همومي».

قال: «ليتني أحظى به أنا أيضاً فأمنحه همّي لوجه الله».

قلت: «تعال، إذاً، نتشاكى الهموم، عسى تنفع الشكوى».

قال: «همّي الوحيد أنني جئت من مدينة ماردين إلى بيروت مشياً على الأقدام طوال عشر سنوات، والآن، بعد سبعين سنة، صرت كلّما نمتُ، رأيتُ في ما يرى النائم، أنني أمشي عائداً إلى ماردين.. وأمشي وأمشي، وأبقى في مكاني».

وإذ رآني الرجل مُصغياً إليه ـ لعلّه لم يجد مَن يُصغي إلى حديثه منذ سنوات، شأنه شأن كلّ رجل مسنّ احتقنت الخواطر في ذاكرته ـ تنفّس الصعداء واستطرد فقال:

ـ «اسمي موسى، وعمري الآن تسعون سنة. ولدت في مدينة «ماردين»، إحدى مدن جنوب شرق تركيا حيث مات أبواي قتلاً، وتشرّدتُ وأنا ابن عشر سنوات فوصلت إلى بيروت ابن عشرين، حيث اشتغلت على مدى عشر سنوات، في معصرة لصنع الحلاوة يديرها حصان تعيس معصوب العينين يدور حول المعصرة بدون انقطاع. وكانت مهمّتي أن أمشي وراء الحصان بدون انقطاع، وكنّا: الحصان وأنا ندور حول ذواتنا، نمشي ونمشي ونبقى في مكاننا.

قلت أخيراً ـ أضاف موسى ـ لعلّ رفيقي الحصان ليس له

حيار إلا أن يبقى يدور حول ذاته، ظناً منه أنه لا بدّ أخيرا أن يصل. أما أنا فلي حقّ اختيار سبيلي إلى الوصول، لذلك تركت المعصرة وانطلقت في أعمال حرّة متنوّعة».

وأشعل الرجل لفافة، وعرض عليَّ أخرى، وفتح عينيـه ملياً.. قلت، لعلّه يحاول، الآن أن يرى بعيني ذاكرته حصان المعصرة. وصدق حدسي، فاستأنف الرجل حديثه قال:

ـ «ولا أكتمك، يا أخي، أنني أصبتُ نجاحاً في أعمالي المتنوعة وأنا أعيش الآن في كفاف من الرزق.. وفي راحة بال لولا همّ واحد هو أنني بدأت، منذ تقاعدت عن العمل، أرى نفسي، في منامي، ماشياً وراء حصان المعصرة، أجرّ رجليَّ ورائي، وأمشي وأمشي ولا أصل أبداً.

وشدّ ما يؤلمني أن أرى، أحياناً، في منـامي، حصان المعصرة، قد أنهكه التعب، فوقف ظناً منه أنه وصل بعد سفر طويل إلى حيث ما زال يجري منذ عشر سنوات، فألوّح عليه بالسوط اضطراراً، فيمشي متهالكاً، ولا ألبث أن استيقظ لأجد نفسي أنني كنت لا أزال أدور حول ذاتي، في منامي، شأني شأن الحصان، ولا أصل أبداً.

ثم تفاقمت الأحلام عليَّ وصارت تعود بي إلى أيّام تعاستي وأنا أمشي متشرداً بين ماردين ونصيبين والحسكة والرصافة وحمص ودمشق وعنجر حتى بيروت.. وأمشي وأمشي في منامي ولا أصل أبداً.

ولجأت أخيراً إلى معالجة نفسي بخداعها. وصرت أمشي وأمشي في نهاري، موهماً نفسي أنني أمشي في طريق عودتي إلى مسقط رأسي، حتى إذا ما راودني الكرى ليلاً وجدتني أمشي في أماكن تعود صُوَرها في أحلامي واضحة جداً، فأستيقظ لأجد قدميَّ متورّمتين من طول المشي في وديان وجبال موعرة جداً. هكذا تصير أوهام الليل حقائق مؤلمة في الصباح.

هذا هو هميّ المزمن كشفته إليك يا أخي فشعرت بارتياح كأني أغفو الآن على سرير وثير في ليل تنكّبت عنه الأحلام المزعجة، فالرجاء، أن تستودعني همّك كما استودعتك همّي، فتجد راحة لنفسك».

أكمل الرجـل حديثه وأرخى سدول جفنيه على عينيه وتنفّس الصعداء، كأنه طرح حملاً ثقيلاً عن كاهله وارتاح، فقلت:

ـ «كان همّي، يا أخي موسى، هو أن أحظى بحكاية جديدة أكتبها هذا المساء فأنام راضياً عن عمل يومي، وقد وجدتها الآن، وموضوعها:

«موسى المارديني، لا بدّ أن يصل أخيراً».



لا بدّ أن يصل أخيراً

.. وأكملت سَعيها مَع الله

عاشت أم نمر حتى شبعت أيّاماً وليالي، ولم يدخل فمها دواء ولم يعبر عتبة بيتها طبيب قط. ومع أنها كانت تقتات، غالباً، بالخضار والبقول البرّية، ولم تأكل لحماً منذ سافر ابنها الوحيد نمر إلى المكسيك، بعد وفاة زوجها، كنا إذا سألناها عن سبب هنائها وطول بقائها، تُشير إلى صورة معتقة تتكىء بكل مهابة على صندوق قديم، أكل الدهر عليه وشرب وتقول: «سيدنا «البطرك أنثيموس» عندي، فلا احتاج إلى طبيب».

وبالرغم من الظروف القاسية التي مرّت على قريتنا، من خراب ونهب وتهجير، اعتصمت أم نمر في بيتها ونجت من كل أذى، لأن سيدنا البطرك أَنثيموس كان يحميها.. ونعم الوكيل. فإذا أرخى الليل سدوله، رسمت إشارة الصليب على صدرها وأضاءت شمعة أمام صورة سيدها وعلى نيته، ونامت آمنة مطمئنة. وحدث خلال تبادل القصف المدفعي، في أجواء قريتنا إبل السقي! بين قوات الحلفاء وقوات حكومة فيشي سنة ١٩٤١ أن قذيفة «تفركشت» وضلت سبيلها وعبرت فوق بيت

أم نمر، على قاب قوسين أو أدنى. وارتطمت في جدار الكنيسة المجاورة. وجئنا نهنِّىء أم نمر لأن الله نجاها من القطوع، قالت: «وسيدنا أنتيموس شو قاعد يعمل عندي على الصندوق!»

ومرّ زلزال ١٩٥٦ بعنف على بيوت قريتنا ورجرجها، إلا أنه تمهّل وتروّى خلال عبوره أمام بيت أم نمر، ولذلك لم تشعر بوطأته البتّة، ولما علمت في الصباح، بما حلّ في سائر بيوت القرية، بادرت إلى تضميخ منافس سيدنا بالبخور حتى بدت على وجهه بشائر الرضى.

هكذا كانت أم نمر تستشفّ علامات الرضى.. وعلامات الغضب أحياناً على وجه سيدنا، ولذلك كانت توصي جاراتها بوجوب الاحتشام في حضرته.

ومع أنها كانت غير متعلمة، إلا أنها كانت تستظهر الأبيات الأربعة المكتوبة في ذيل الصورة، لأنها كانت في مستوى مفهومها الأدبي، وهي:

يا أيُّها الراعي الجليل　　خليفة يعقوب، الرسول
لقد اجتهدت مفسّراً　　لزبور داود النبيل
وظهرت مثله قدوة　　حيث تردع ذوي العقول
إلزموا الأدب ليلاً　　يغضب الربّ كما يقول

وكلمة «ليلاً» هنا هي «لِئَلَّا»، حسب ظنّي. وهي «ليلاً» حسب

ـنَ أم نمر. فيكون المقصود عند أم نمر هو «الزموا الأدب في ـليل!» قيل إن أم نمر اتهمت إحدى جاراتها بقلة الأدب، لأن ـارتها هذه سألتها، بنية غير سليمة: «ولماذا يطلب منا سيدنا ـراعي الجليل أن نلزم الأدب ليلاً، «والليل ستار العيوب»، ـحن لا نستطيع أن نتعاطى ما نتعاطى، بحرية، إلا على ـعتم!»

ومع أن أم نمر كانت تعيش وحدها منذ وقت طويل، في ظل راعيها الجليل، إلا أنها لم تكن تشعر بالملل ولا ساورتها الكآبة يوماً، لأنها كانت لا تفتأ تمدّ حديثاً مع هرّها الأسود عبّود الذي كان قد بلغ من العمر عتياً. فإذا ما تربعت أمام موقدتها، ـجمع عبود في حضنها وراح «يردن» ردناً[1] رتيباً مهيباً، قالت ـن هرها عبود كان هكذا يصلي دائماً قبل استسلامه إلى الكرى. وعليه أمكن القول أن وجود سيدنا أنثيموس كان يفرض واجب التقوى على كل مَن كان حوله.

وحرصاً على مشاعر سيدنا أنثيموس الذي نذر العفّة وعاف مباهج الدنيا، كانت أم نمر تحاذر أن تخلع ثيابها على مرآه. لذلك كانت، إذا أرادت أن تستبدل ثيابها الداخلية، تلطَّت

(١) الردن هو صوت الخرخرة المنبعث من حنجرة الهرّ عند نومه، ويقال أن الهرّ والنمر يتفردان بالخرخرة، دون سائر الحيوانات، وهما من فصيلة واحدة تمتاز بأفضل وسائل الدفاع وبالكمال والجمال الجسماني.

وراء شرشف «اليوك»[٢] واستبدلتها بكل حذر، لأن قلة الاحتشام قد تؤذي تقوى سيدنا الكليّ الاحترام.

وجاء شهر شباط قاسياً في احدى السنوات.

وشهر شباط هو الشهر الذي تموت فيه عجائز قريتنا. ومَن نجت منه بسلام انتظرته بعد عام. وحدث أن وُجدت أم إبراهيم ميتة، ذات صباح، وهي نائمة في فراشها كما تموت المرأة البارّة، فقال الخوري الياس وهو يجنزها انها أكملت سعيها مع الله، قبل وفاتها، لذلك رتب الله نفسها مع الأبرار في السماء.

فقالت أم نمر: «ليتني أموت ميتة هنيئة مثل أم إبراهيم!»

وبينما هي راجعة من الكنيسة اعترضتها أم جبران وسألتها عن رجب شاويش. وأم جبران هذه هي عجوز مسكينة عاشت حتى نخر الخرف عقلها وعطّل فطنتها وصارت تخرج من بيتها، بدون هداية، وتسأل الناس عَمن رأى رجب شاويش. ورجب شاويش هذا كان دركياً سيء السيرة في أيام الحرب العالمية الأولى، وقد انطفىء خبره إلّا في ذاكرة هذه المرأة الفاقدة الاعتبار.

قالت أم نمر: «وماذا اعمى قلب شباط عن هذه المرأة

(٢) اليوك هو مكان تجمع فيه الفرش ويغطى بشرشف معلق بالسقف.

تعيسة! ليته ألحقها برجب شاويش الذي لا تفتأ تسأل عنه مذ فقدت صوابها». ثم ندمت واستغفرت لأنها اعترضت على ارادة الله، واسرعت خطاها إلى بيتها وركعت أمام سيدنا نثيموس ورفعت إليه ضراعة حارة، قالت: «أنا لا أخاف الموت، لكنني أخشى الخرف، وإذا كان لا بد أخيراً من الخرف، فليأتِ شباط في هذه الليلة ويقبض روحي، ولكن فلتكن إرادة الله!»

ونهضت ووضعت «قرقوداً»[١] من الحطب في موقدتها لكي تبقى نارها متوقدة، وبقيت ساهرة، وهي تحتضن هرها الأسود في حضنها، حتى أصبح الصباح حين علمت أن شباط استقرب وقبض روح جارتها أم فرحان، على عجل. قالت: «لعل شباط أخطأ باب بيتي، وقدر لي إذاً، أن أعيش حتى شباط القادم». واستأنفت أعمالها اليومية، وتابعت سعيها مع الله.

جئت يوماً أسأل نسيبتي أم نمر عن أصل وفصل صورة سيدنا البطريرك أنثيموس، قالت: «هي كل ما نالني من تركة عمي الخوري جريس الراسي».

فقلت في سرّي إن الخوري جريس الراسي هذا المتوفى سنة ١٨٨٤ كان ابن عم جدّي، والمثل يقول: «مَن كان له في

(١) القرقود هو حطبة كبيرة الحجم.



الجمل أذنه يحقّ له أن يفك رسنه». «وحطيت عيني» على الصورة منذئذٍ، لكن أم نمر ماتت على حين غفلة، فجاء جيرانها وجاراتها «وكوكشوها».

وتحريت مصير الصورة حتى حظيت بها واسترجعتها، لأني كنت أولى الناس بنيل بركتها.. بعد موت صاحبتها، ولأني كنت أحرص على أن لا يتولاها مَن لا يستحق نعمتها. وصاحب الصورة هو البطريرك انثيموس بطريرك مدينة الله المقدسة أورشليم وسائر أعمال فلسطين المتوفى سنة ١٧٩٢، والذي عرّب وشرح مزامير (زبور) داود المطبوع، بالعربية، في مدبنة فينّا، في النمسا، سنة ١٧٨٩. وكان العثّ قد عاث في أطراف الصورة. لكنه تهيّب عند هيبة صاحبها.

أصعب وَجَع ، وَجَع العقـــل

داهمني ما يُسمى «عرق النَسا» وهو أحد أمراض المذلة، لأن افتراش الأرض هو أول شروط المعالجة. وجاء أحد الأطباء بأدوية ومسكنات، لكنه قال أن هذه العلة «لا تروح إلا بطولة الروح»، فتضاعف وجعي.

ودخل الصديق سويدان الأشقر وسألني عما بي، قلت: «وجع لئيم بدأ في وركي وسقط حتى أخمص قدمي...» فقاطعني قائلاً: «لا، لا، هذه وجعة وليست وجعا، والفرق كبير بين الوجعة والوجع، وأطباء هذه الأيام لا يميزون بين الوجعة والوجع، لأنهم تعلموا في أميركا حيث لا فرق عند الأميركيين بين المؤنث والمذكر، فهم يقولون مثلاً: «جاء الرجل وجاء المرأة ـ لا جاءت ـ ولهذا السبب تساوت عندهم النساء والرجال في الحقوق والواجبات...».

فاستويت جالساً وقلت! «ولكن يهمني يا أخ سويدان أن أعرف ما هو الفرق في المعالجة بين الوجعة والوجع». قال: «مثل الفرق في التعامل، بين المرأة والرجل. فالمرأة لا تعامل بالوسيلة بل بالحيلة».

وأدار الرجل ظهره وخرج، قلت، لعل الرجل على صواب، على الأقل في ما خص الأدويـة وهي وسيلة غير ذات جدوى، فلأعالج وجعتي إذاً، بالحيلة، ما دامت وجعتي أنثى.

وشاع الخبر عني فتوافد الأصدقاء والمحبون وراحوا يتبرعون لي بالوصفات، قال أبو رضوان إن الأمير بشيراً المالطي كان يشكو من عرق النَسا وعالجه المعلم نقولا الترك بمرهم شحم الثعلب. فجربنا مرهم شحم الثعلب. وأشارت شفيقه المصري علينا بلزقة من ورق القراص الرديء السيرة، الذي قالت إنه شفى سيدنا النبي أيوب من جميع أسقامه. فجربنا لزقة القراص، ووجدنا أن ما يشفي الأمراء والأنبياء لا يشفي المتفلسفين والشعراء.

ونصحنا أبو ناصيف بالتشمير أمام وكر الدبابير، لأن عقصة الدبور تقلع الوجع من الجذور، ولما تجاهلنا نصيحته أخذ على خاطره وما زال حاجبه ثقيلاً علينا إلى يومنا هذا.

وأرادت جارتنا أم سرور أن تشجعني على تحمل الأوجاع فذكرتني بمار قزحيا شفيع الموجوعين الذي مارس أصعب الأوجاع تكفيراً عن خطايا الآخرين، وكان يقول:
«وجع أصعب من وجع، وأصعب وجع.. وجع العقل».
فقلت: «آخ يا عقلي!»

ومع تفاقم نوبة وجع العقل ومحنة مداراة خواطر الناس، فقدت ثقتي «بالحيلة»، كما كنت فقدتها قبلاً «بالوسيلة»، وإذا

بالمعلم داود يدخل ويسلم ويجلس ساقاً على ساق ويدخن سيكارة ويصمت. فقلت له: «ظنناك يا معلم داود صديقاً صادقاً».

قال: «وماذا رأيت من قلة صدق صداقتي؟»
قلت: «جميع الذين زاروني، ما عداك، تبرعوا لي مشكورين بوصفات لوجع عرق النَسا. وكان أملي فيك أن ترتجل لي وصفة تزعم أن المرحوم جدك أو جد جدك، كان يستعملها، مثل بيض الحرذون مثلاً أو شورباء العنكبوت الأخضر أو ما أشبه ذلك، وذلك من أجل إثبات صدق صداقتك أولاً، ورجاحة عقلك ثانياً».

قال: «أنا، كما تعلم، شاعر لا طبيب، ومنذ دخلت الآن، وأنا أحاول أن أتذكر بيتين من الشعر يذكران شيئاً عن عرق النَسا. وقد حضرني البيت الأول وفاتني البيت الثاني. يقول أحد الشعراء:
لعمرك ليس عند الطبّ داءُ
- إذا فكرت - ليس له شفاءُ»
قلت: «ليتك يا معلم داود تتذكر البيت الثاني، ما دام يذكر شيئاً عن عرق النَسا، ولربما استطاع الشعراء أن يفعلوا ما يعجز عنه الأطباء».
لكن المعلم داود خانته ذاكرته، فاختصر زيارته.
وقبيل منتصف الليل تناولت ما بقي لديّ من المسكنات

ولذت في فراشي، وإذا بالباب يُدق، وإذا بالمعلم داود يدخل مسرعاً ويتوجه إلى غرفتي ويجلس إلى حافة فراشي ويقول: «فطنت إلى البيت الثاني فيما كنت أوشك أن أنام، فلم يهدأ لي بال حتى جئت أوافيك به».

قلت: «بارك الله في أصلك وفصلك يا معلم داود، الآن تأكدت من صدق صداقتك، ولا سيما أنك جئت في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تحت المطر، لكي توافيني ببيت من الشعر قد أكون الآن في حاجة إليه».

قال: «الشعر شاغلي الأهم ولا عجب إذا بلغ اهتمامي ببيت من الشعر إلى هذا الحد، وأنت صديقي وأراك متألماً من عرق النسا، والصديق لوقت الضيق، هذا ويجمعني بك حبك للبحث وتقصي الحقائق، فأنا، اليوم، يشغلني شاغلان: الأول هو أننا نسمي كل جزء من القصيدة «بيتاً»، كما نسمي، كذلك كل مسكن نسكن فيه «بيتاً»، فأي بيت سبق البيت الآخر تاريخياً؟»

وافترض المعلم داود، سلفاً، أنني لا أعلم، وتبرع لي بالجواب، قال: «حسب ظني أن العرب الأولين عرفوا الشعر قبلما عرفوا بيوت السكن، لأنهم عاشوا أجيالاً في العراء، قبل أن يعرفوا بيوت السكن، فيكون «بيت الشِعر»، والحالة هذه، سبق «بيت الشَعر» الذي سكن العرب فيه قديماً، والفرق بين الشِعر والشَعر شطحة قلم.

أما شاغلي الثاني - أضاف المعلم داود - فهو أننا نسمي القسم الأول من بيت الشِعر «صدرًا»، والقسم الثاني منه «عجزاً»، ولا بد أن يكون لهذه التسمية سبب وجيه. فالمرأة كانت، وما زالت، أهم اهتمامات الرجل العربي، والصدر والعجز، في الشعر، هما صدر المرأة وعجزها. والمرأة الولود هي رمز الكمال والجمال عند العرب، وعلامة المرأة الولود المدرار هي في صدرها وعجزها، وكلما تم التناسب والتناسق بين صدر المرأة وعجزها كان ذلك تذكيراً للرجل بالتناسب والتناسق بين صدر الشِعر وعجزه. ثم هنالك القافية، في آخر العجز، والقافية مشتقة من «القفا»، كما لا خفاك الأمر».

قلت: «سامحك الله يا أخي داود، إن الحديث، في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، عن الصدر.. والعجز.. والقفا.. والقافية يحتاج إلى صحة وقابلية وعافية، وأنا الآن عقلي في علتي، والوجع يكاد يطفىء جذوتي، ويكفيني من هذا البحث بيت من الشعر جئت الآن تشرح به خاطري، لعلي اتداوى به وأبيت ليلتي بسلام».

فوقف المعلم داود واستدار حتى أصبح إزاء الباب، وقال:

لعمرك ليس عند الطبّ داءُ
- إذا فكّرت - ليس له شفاءُ
سوى عرق النَسا، إذ لا طبيب
يداويه.. وليس له دواءُ

جُـودٌ مِن المَـوجُود

إذا مررتَ في إحدى قرى لبنان الداخلية ورأيت، من بعيد، امرأة تخبز الخبز المرقوق على الصاج، وسمعت «الطبطبة»، فاعلم أن صوت الطبطبة هذا معنـاه، في المفهوم الشعبي اللبناني، «تقضّلْ على الميسـور!» والميسور هـو «الرغيف السخن» من كف سخي.

كان ذلك في الخمسينات، حين تركني رفيقي في السيارة وتوغّل في أحد زواريب قرية معاصر الشوف، في مهمـة خاصة، وحانت مني التفاتة إلى حيث رأيت رجلاً وامـرأة يتعاونان في خبز الخبز المرقوق على الصاج. ولاحظت حركة يدَي المرأة وصوت كفيّها وهي ترقّ الرغيف على الطبلية، بحيث تؤلّف «الطبطبة» لحناً موسيقياً متناسقاً ربما لم يفطن أحد قبلاً إلى تسجيله موسيقياً على اعتبار، أنه من ألحاننا الشعبية المعرضة للزوال.

ثم انتبهت وغضضت طرفي تأدباً وأرهفت سمعي تعجُّبـاً،

وما لبثت أن رأيت الرجل يتقدم إليَّ برغيفين. قال: «تفضل على الميسور!»

فشكرته وقلت اني لست جائعاً.

قال: «الرغيف السخن يفتح القابلية سواء كنت جائعاً أو شبعان، والمثل يقول: «لا جُود إلا من الموجود!» هذا كل ما عندنا الآن لعابر سبيل في قريتنا».

ولما لاحظ الرجل تردّدي في «قبول خاطـره» لفّ أحد الرغيفين وراح يلتهمه أمامي، وذلك تطميناً لي وتأكيداً لحسن نيتّه. فتناولت الرغيف الآخر منه ولففته كيفما تيسَّر ورحت أقضمه تطميناً للرجل إلى أنني أطمأنيت إلى اريحيته العفوية. وسألته، من قبيل اللياقة عن اسمه. قال: «أخوك أبو سليمان».

قلت لنفسي: «صار أبو سليمان، إذاً، أخي. فلأفسح له مجالاً للكلام بما يناسب المقام، فسألتـه عن «سرّ الخبـز والملح» الذي يجعل الناس أخوة وأصدقاء».

قال: «معلوم! أنت الآن أكلت خبزي وملحي فصـرت أخي.. الخبز والملح هو أحد روابط الصداقة والوفاء، فمن أكل خبزك وملحك صار صديقك».

واستطرد أبو سليمان فقال: «اتعلم يـا أخ، كيف يصير الكلب صديقاً صادقاً لصاحبه، ولا يصير الثور والحمار كذلك. لأن صاحب الكلب يطعم كلبه، دون الثور والحمار، من خبزه

وملحه، فتنشأ بين الكلب وصاحبه رابطة «خبز وملح» وصداقة صادقة حتى الموت».

ثم استدرك أبو سليمان وقال: «مع عدم المؤآخذة من حضرتك! فأنت سبع، حماك الله، والسبع، كذلك، لو استطاع الإنسان أن يطعمه من خبزه وملحه لصار صديقاً له».

كانت اللقمة قد حشرجت في زراديم رقبتي عند ذكر الكلب وصاحبه، بيد أنني سرعان ما ارتضيت بالترضية العفوية لأن الرجل عاد وشبّهني بالسبع الذي يصير صديقاً للرجل إذا أكل من خبزه وملحه. وكان بودّي، آنئذٍ، أن أشقّ طريقي إلى مفاهيم الرجل بمداخلة عابرة لولا أنه عاجلني بحكاية قال:

«كان المرحوم أبو جرجي من كرام القوم في دير القمر، وكان عنده كلب اسمه «كبسون»، فإذا تناول أبو جرجي رغيفاً ليأكله، أخذ منه لقمة وأعطاها إلى كلبه «كبسون». فسألوه لماذا لا يبرح يعطي كلبه لقمة من كل رغيف يأكله هو، قال: «لكي تصير بيني وبين «كبسون» صداقة خبز وملح...»

فقلت متداخلاً، بجدّ لا شائبة عليه: «ولما مات أبو جرجي، رحمة الله عليه، حزن «كبسون» عليه حزناً شديداً وابى، بعد موت صاحبه، أن يذوق خبزاً وملحاً.. وبعد أسبوع وجدوا «كبسون» جثة هامدة قرب قبر صاحبه».

قال أبو سليمان: «معلوم! مات «كبسون» حزناً على أبي

جرجي، هذا هو «سرّ الخبز والملح» الذي اكتشفه أجدادنا قديماً واستعملوه لتمتين روابط الصداقة بين الناس. وعلى أبنائنا أن يفهموه ويحافظوا عليه حفاظاً لتقاليدنا الشعبية الشريفة من الزوال».

كَلب المِير، مير

كان المفوض السامي الفرنسي الجنرال سرايل يقتني كلباً مدللاً يدخل إلى ديوان سيده ويخرج بدون استئذان، وحدث أنه دخل يوماً فيما كان كبار القوم مجتمعين في ديوان المفوض السامي، ومنهم نوري باشا الشعلان أمير قبيلة عنزه في سوريا. وراح الكلب يسلم، بأنفه على الحاضرين تباعاً. ولما اقترب من نوري باشا، تناول نوري باشا مسدسه ليقتل الكلب، وكان على المفوض السامي، حينئذٍ، أن يختار بين خروج نوري باشا وإخراج الكلب بالتي هي أحسن، وكلا الخيارين صعب.

مُفيدالعُلوم عِندأبوكرّوم

أبو كرّوم بائع خضار يحتلّ قارعة الرصيف ونصف الشارع في محلة الحمراء في بيروت، ويأمر وينهى كمن له سلطان:

ـ الشمندر، يا ستّ، آخر دواء للنحافة!

ولا يلبث أن يملأ كيساً من الشمندر، بسرعة ويناول سيدة تعبر الشارع متمهلة.

ـ الكوسى، يا عم، موصوف لارتخاء المفاصل!»

ـ الباميا للضغط.. اللوبياء لريح السداد.. البصل والثوم لوجع البطن وسوء الهضم. وهكذا دواليك، فلا يرتاح بال الأخ أبو كروم حتى يرتاح بال جميع زبائنه بإذن الله. فسألته يوماً، عن وصفة للإسهال، قال: «عليك بالملفوف!» وناولني ملفوفة بسرعة.. وبعد أسبوع سألته عن أفضل علاج للإمساك، فناولني ملفوفة.

وأبوكروم هذا هو صديقي منذ عشر سنوات تقريباً، يوم رأيته يبيع التين في شارع المكحول وسألته عن ثمن الكيلو، قال: «مئة وخمسون قرشاً». وناولني كوزاً، فقلت مُرتجلاً:

حلوين شْفاف الحلوينْ   لكنْ مش أحلى من التينْ
بعنا الحلوين بميّه   والتين، بميّه وخمسينْ

فحفظ أبو كروم الردّة وراح يغنّيها بملء فمه وأقبل الناس عليه، فنفّق كل ما كان معه من التين في ساعة من الزمان.

أمس اشتريت منه ربطة نعنع وربطة بقدونس بمئة وخمسين ليرة (سقى الله زمان المئة والخمسين قرشاً) ورأيته ينزع صفحة من كتاب قديم يلفّ بها ربطة البقدونس، فانتزعت من يده ما بقي من الكتاب، فإذا هو كتاب «مفيد العلوم ومبيد الهموم» للعلامة أبي بكر الخوارزمي المتوفى في مدينة نيسابور سنة ٩٩٣.

وسألت الأخ أبا كروم كيف انتهى إليه هذا الكتاب، قال: «اشتريته مع كتب أُخرى «بسعر الجِمْل»، للاستعمال، لأن الورق صار أرخص من الحبر في هذه الأيام».

قلت: «ولماذا صار الورق أرخص من الحبر؟»

قال: «لوجود فائض في الكتابة ونقصان في القراءة.. ولأن بعض الكلام المكتوب بالحبر على الورق غير مفهوم وغير مهضوم، لذلك يفقد الحبر قيمته ويباع الكتاب بسعر الورق أو أدنى».

وأضاف أبو كرّوم. «فإذا كان عندك فائض من الكتب وتريد أن تبيعها بسعر الورق، فأنا أتوصّى بك».

قلت: «لا بل أنا اشتري، وإذا كانت عندك كتب أخرى مثل هذا الكتاب، فأنا اشتريها بثمن الحبر، لكي تبقى للحبر حرمة وكرامة».

وعوّضتُ أبا كروم، عما بقي من صفحات الكتاب، بمئة ليرة، قلت لعلي أحظى فيه بكلام عن تفسير الأحلام، مثلاً، أو بحكمة لمعالجة فتور الهمّة، أو الاستعانة بأحد ملوك الجان لإسكات عبد الحليم حافظ في راديو بيت الجيران، أو بالمفيد من العلوم التي قصّر عنها باع الأخ أبي كرّوم. يقول الخوارزمي:

- القطران يُخلط مع الخلّ ويوضع في الأذن المدودة فيموت الدود ويسكن الوجع.
- سلح فرخ الحمام، إذا استعمله الرجل وقت المباضعة يمنع الحمل.
- صاحب الثآليل، إذا ترصّد النجم الساقط من السماء، ومسح يده في تلك الحالة، على الثآليل، تختفي في الحال.
- مَن أكل لحم الجمل مشوياً برأ من الوباء.
- الحمار يُغشى عليه إذا عُلّقت الخنفساء على ذنبه.
- من طلى بدنه بشحم الثعلب أمن من البرد.
- إذا طلي بدن الكلب بشحم الضبع يجنّ ويموت.
- من قال، عند استهلال الشهر: «بربّ هذا القمر، لا آكل الهندبا، في هذا الشهر». يأمن من الرمد ووجع الضرس...»

تم كتاب عجائب الدنيا ﴿كتاب في الخواص وفيه خمسة أبواب﴾
﴿الباب الأول في خواص المعدنيات﴾ القطران ان طلى به الاسنان المتأكلة يسكن الوجع
وان خلط مع الخل في أذن فيها الدود يقتله و يسكن الوجع وان خلط مع دم ورجيع فرخ الحمام
و يطلى على البرص يغير لونه وان استعمله الرجل وقت المباضعة يمنع الحبل والمرأة اذا تحملت بالملح
لا تحبل ومن كان له مريض مشرف على الموت وأراد أن يعلم موته أو برأه فيأخذ قطعة من الخزف
ويجعل فيها النار و يلقى عليها قطعة من الملح ويوضع على باب البيت الذى فيه المريض فان انقلب
الملح الى البيت فذلك علامة الصحة وان انقلب الى خارج البيت فذلك دليل موته وان بقي مدة
على النار فذلك علامة طول مرضه وان جعل الزرنيخ المسحوق بالماء في اناء مكشوف الرأس
فكل ذباب يقع عليه يموت وان بخر به مع الجاوشير في البيت ينفر العقارب والحيات والهوام
[illegible] اذا أكل [illegible] ان ينتفخ لسانه [illegible] لم يدرك يموت صاحبه والنورة اذا عجن
[illegible] مكارم الاخلاق وعلى آله واصحابه الناشرين دعوته في جميع الآفاق
﴿أما بعد﴾ فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم للعلامة أبي بكر
الخوارزمي رحمه الله وأثابه من رحيق رحمته فوق ما يتمناه وهو كتاب حوى من أطراف العلوم

فقلت: «لالا لا بدّ إذاً من وجود «عداوة كار» بين أبي بكر وأبي كروم، وإلاّ لماذا هذه الدعاية من أبي بكر ضد الهندبا التي سمعت أبا كروم يصفها لوجع الرأس.

وحشرت، عندئذٍ، أبا بكر الخوارزمي بين أبي عثمان الجاحظ وشهاب الدين الأبشهي، في مكتبتي، وقفلت راجعاً إلى حيث كان الأخ أبو كروم ما زال يتبرّع بالنصائح إلى كل غادٍ ورائح، وسألته ماذا يعرف عن أبي بكر الخوارزمي.

قال: «أبو بكر! وماذا يشتغل صاحبك أبو بكر هذا؟»
قلت: صاحبي أبو بكر هذا يبيع الخضار في أول النهار، ويتعاطى الطبّ في آخر النهار، ويتكلم السوء في حق الهندبا، ولا بد أن تكون بينه وبينك عداوة كار».

لم يأبه أبو كروم لكلامي وتابع حديثاً كان بدأه مع سيدة تحمل باقات من الجرجير وقال لها: «أربع باقات من الجرجير لا تفعل كما يلزم.. زوجك رجل سبعيني ـ **وابن السبعين للسكين** ـ كما يقول المثل، لذلك خذي له سبع باقات تكون مأكوله هذا المساء، وغداً ستذكرين أخاك أبا كروم بالخير إن شاء الله».

فدفعت المرأة ثمن السبع باقات ومضت شاكرة.

فسألت أبا كروم عن علاقة الجرجير بالمرأة. قال: «الجرجير له تأثير كبير في معنوية ورجولة زوج المرأة ـ لا

المرأة نفسها ـ لأن الرجل، متى فترت همته.. أو بردت حميّته، قلقت عليه وعلى نفسها زوجته، وبادرت إلى معالجته بالجرجير والمثل يقول، عن المرأة:

«متى اختبرت فعل الجرجير، زرعته تحت السرير».

أقرب الطرّق إلى الآخرة

كنت ذات صباح من نيسان **١٩٨٩**، أعبر أحد شوارع رأس بيروت حين انهمرت القذائف فجأة، فتراكض الناس عشوائياً باتجاه أقرب الملاجىء. ورأيتني استقرب مدخل إحدى البنايات، حيث وجدت رجلاً يتلطّى مقرفصاً تحت الدرج، فلزته وانزويت إلى جانبه.

ولما هدأ روعي، دون أن يهدأ روع القذائف، سألت الرجل إذا كان يعرف أو يتصوّر لماذا.. ومتى.. وكيف.. وأين ستكون النهاية، قال:

ـ تسلّق جحا شجرة حور باسقة حاملاً حذاءه معه. فناداه رجل من تحت، وسأله عن سبب صعوده إلى رأس الشجرة.. ولماذا حمل حذاءه معه. فقال:

«خايف [illegible] التالي، تصير الدرب من هون طلوع».

صَبَايا الهولبروف

راجت في لبنان، في الثلاثينات، جوارب (كلسات) ماركة «هولبروف» بسبب اعلان (دعاية) يمثل صورة ساقَي امرأة إلى ما فوق ركبتيها، في جوارب شفافة ماركة هولبروف، مع ردة بليغة من الزجل تقول:

يا حلوي اسم الله عليكي	كان السحر بعينيكي
لما البستي الهولبروف	صار السحر بساقيكي

وبسبب جمال الصورة المنشورة في عدة مجلات وبلاغة ردة الزجل أقبلت نساء ذلك الزمان على جوارب هولبروف. ولما كانت الصورة تظهر ما فوق الركبتين قليلاً لذلك صارت لابسة الهولبروف تقصّر فسطانها إلى ما فوق ركبتيها لتلفت النظر إلى جواربها التي كانت أشهر الجوارب في ذلك الزمان، وإلى جمال ساقيها وما فوق ركبتيها معاً.

وهذا ما أثار موجة من النقد في المجتمع البيروتي التقليدي، فنشرت إحدى المجلات أبياتاً منسوبة إلى الشاعر القروي مطلعها:

لفوق الركبتين تشمّرينا   بربّك أيَّ نهر تقطعينا

كما أذكى تقصير الفساطين حسرة بعض «المقصّرين» من الرجال، ولا سيما الشعراء منهم الذين كانوا يمارسون الغزل «على الريحة»، كما قال أمين الريحاني، فقال أحد الشعراء:

علامَ بدأتِ أنتِ تقصّرينا
ونحن، كما عهدتِ، «مقصرونا»
لو انّا لم «نُقصر».. لم نقصر
- بحق جمال ساقيك - جنونا

ولكن ردة الزجل في الدعاية بقيت سيدة الموقف بسبب بلاغتها وسرعة انتشارها، وهذا ما أثار حفيظة شعراء الزجل في ذلك الزمان فبادروا إلى معارضتها ومشاكستها، قال أحدهم:

يا حلوي ذوقك خانك   نحنا بدنا منشانك
لما البستي الهولبروف   عقلك صار بسيقانك

وقال آخر:

يا حلوي زوجك منتوف   معتّر من كتر المصروف
جِسّي انكنك بتحسي   وشوبدّك بالهولبروف

وهكذا صار الهولبروف موضة تلك الحقبة في حياة بيروت، ولا سيما أن موضة الهولبروف كانت تسمح للمرأة أن ترفع فسطانها تدريجاً فوق ركبتيها. وسرعان ما انتشرت في

المجتمعات البيروتية أغنية شعبية منسوبة إلى الشاعر لشعبي عمر الزعني، أو محرّفة عن إحدى أغانيه الشعبية وهي تقول:

يا معروف، تاع وشوف   كل شي صار عالمكشوف
الشبان شيك سمباتيك   والصبايا هولبروف

ولما كانت المشاغل الأدبية في ذلك الزمان تطغى على ما سواها من الهموم الحياتية لذلك حفلت المجالس الاجتماعية بمداخلات شعرية وزجلية حول موضوع الهولبروف وتقصير الفساطين كان ابلغها بيتين للشاعر أحمد الصافي النجفي، قال:

نُحبُّ الثوب محتشماً   ونأبى كلّ مُنتحلِ
ونحن بحالنا أدرى   وأنتِ بحالكِ «اصطفلي»

وراحت بعض النساء «تصطفل» بحالها لأن الاصطفال كان من سمات تلك الحقبة، وانتشرت المسابح المختلطة على شواطىء بيروت وصار بإمكان رواد المقاهي المنتشرة فوق الشواطىء أن يقولوا مع عمر الزعني:

يا معروف، تاع وشوف   كل شي صار عالمكشوف

ثورة الطنابر في بيروت

حتى بداية عهد الاستقلال كان ما زال للطنابر وجود كثيف في شوارع مدينة بيروت، ومع تكاثر استعمال السيارات وتزايد عدد السكان بدأت الشوارع تغص ومشاكل السير تتعقد، الأمر الذي استوجب درس الموضوع في مجلس النواب حيث كان البعض يرتئي تخصيص مواقف ومسالك خاصة بالطنابر ويرى البعض الآخر وجوب إلغائها وتعويض أصحابها.

وكان بعض نواب الجنوب يواصلون إثارة الموضوع في كل جلسة لأن أكثر أصحاب الطنابر كانوا من أبناء الجنوب وهكذا استغرق بحث موضوع الطنابر عدة جلسات متواصلة.

وفي أثناء إحدى المناقشات وقف النائب إميل لحود وقال: «نحن كمجلس نيابي علينا مسؤوليات وواجبات عامة وملحة. هناك أوتوستراد بيروت طرابلس مثلاً. هناك مشروع نفق حمانا شتورة. هناك مشروع مجارير الساحل وهناك المدرسة المهنية في الدكوانة...»

وكان النائب لحود يكرر كلمة «هناك» قبل اسم المكان أو

القرية المنوه عنها إلى أن قال أخيراً: «أما إذا كنا نريد أن نصرف كل هذا الاهتمام بموضوع الطنابر. فهناك الطامة الكبرى».

وفي اليوم التالي التقى أحد نواب الجنوب النائب لحود وبادره بقوله: «على فوقه، وين بتوقع محلة «الطامة الكبرى» التي تقترح جعلها مواقف للطنابر؟»

فقال النائب لحود متكلفاً الجد في كلامه: «في ساحة الشهداء يا زميلي العزيز».

وانتشر جواب النائب لحود من بيروت حتى أقصى الجنوب، فعلق ابن الجنوب الشاعر عبد الحسين العبد الله على واقعة الحال، قال:

ملأنا أرضنا شعراً ... وفكراً مشرقاً حُرّا
عجيبٌ أمرُ نائبنا ... ألمْ يسمعْ! ألمْ يقرا!
هناك الطامة الكبرى

ولم تنتهِ مزحة إميل لحود عند عبد الحسين العبد الله بل تجاوزته إلى الأوساط الشعبية ولا سيما أصحاب الطنابر الذين كانوا يتخذون لهم مواقف في أسفل شارع اللنبي وفي المنعطفات المؤدية إلى مرفأ بيروت.

وفي ذات صباح انطلقوا في مظاهرة بطنابرهم وبغالهم باتجاه ساحة الشهداء وانطلقت أصوات زماميرهم الهوائية

وقرقعة دواليب طنابرهم ووقع حوافر بغالهم بضجيج لم يسبق له مثيل في تاريخ المدينة التي لم تألف ولم تتآلف إلا مع المظاهرات الوطنية والعقائدية.

في ذلك الزمان كان سوق الحسبة في محلة الريفولي القريبة من ساحة الشهداء محط الوافدين المتعيشين في المدينة من حمالين ودلالين وبطالين وباعة متجولين وشتيت من المتشردين والمتسولين ولاعبي الكشاتبين الذين اندفعوا جميعاً يواكبون المظاهرة وهم يهتفون:

بدنا نأكل بدنا نعيش   بيكفينا قهر وتدفيش

وفوجئت السلطات بالمظاهرة قرب مداخل ساحة الشهداء أفخم ساحات المدينة حيث كانت سرايا الدولة ودور السينما وأشهر المحال التجارية، وهرع رجال الأمن يحاولون قمع المظاهرة بالقوة، وكانت الطنابر تسد المعابر وبدأ الضرب والتدفيش فأجفلت البغال واحتدم الخبيط باللبيط وتمكن رجال الأمن أخيراً من السيطرة على الموقف واعتقلوا بعض الرجال، بينما أفلتت بعض البغال ودخلت في معركة سجال مع العابرين من أهل المدينة ورجال الأمن على حد سواء.

وبدأ التحقيق لمعرفة المسؤول عن المظاهرة الخرقاء، وما لبثت أن سرت إشاعة تقول أن أصحاب الطنابر حصروا المسؤولية بالنائب إميل لحود الذي كان محامياً كبيراً وشاعراً

زجلياً اشتهر بالدعابة وتركيب المقالب. فداعبه أحد زملائه قيل أنه النائب المحامي أديب الفرزلي بردة من الزجل، قال:

بالبرلمان ما عدت مترجّي   وبمهنتك بطّلت مشكلجي
ما زالك ترقّيت وتسمّيت   شاويش ع تلاتمية طنبرجي

حسن يتوصّى بحسين

قدم خنجر العبد الله، الوجيه المعروف في جنوب لبنان إلى بيروت ليزور ابنه حسين، الذي كان يومئذٍ وزيراً للبريد والبرق والهاتف، فاستقبله في باب الوزارة رجل من أبناء الجنوب وقال له: «كل خدمة تلزم يا خنجر افندي، ابني حسن هنا وسيكون في خدمتك لتسهيل أمورك في أي دائرة من دوائر الوزارة».

فسأله السيد العبد الله: «وماذا يشتغل إبنك حسن هنا في الوزارة؟».

قال: «إبني حسن، صار، والحمد لله، حاجباً عند مدير الهاتف».

قال السيد العبد الله: «أرجو، إذا، أن يتوصّى ابنك حسن بابني حسين».

قال الرجل: «وماذا يشتغل المحروس حسين في هذه الأيام؟»

قال: «ابني حسين هو وزير البريد والبرف والهاتف».

...والعظمة شيء آخر

أنشأ سليم سركيس الصحافي اللبناني الأصل، عدّة جرائد ومجلات في بيروت ولندن وأميركا ومصر، في أواخر القرن الماضي ومطالع القرن الحالي، كانت أشهرها، ما أسماها «مجلة سركيس» التي واصلت حملاتها، في مصر، على السلطنة العثمانية، وعلى بعض من تولّى الأحكام فيها.. وعلى تحريض العثمانيين على الثورة.

وقيل إن سليم سركيس كان يُطلع مواطنه وزميله الشيخ نجيب الحداد على بعض مقالاته قبل نشرها، ويقول له: «هذه المقالة ثمنها الحكم عليَّ بالسجن شهرين. وهذه الافتتاحية ثمنها تعطيل المجلة لمدة نصف سنة. وكانت توقعاته تصدق أحياناً.

وحدث أن وصل إلى كرسي الحكم، في الأستانة، عاصمة السلطنة العثمانية، والٍ كان سركيس قد هاجمه مراراً، بسبب سوء سياسته، فنشر سركيس خبر ترقيته غير المنتظرة، باستهجان، مع قصة رمزية، قال قبل نشرها: «وهذه القصة،

ربما كلفتني حياتي». وصدق ظنه، فنجا من محاولة اغتيال بسببها.

وتقول القصة إن رجلاً من ديار بكر، إحدى المدن العثمانية النائية، كان عنده ابن سيء السيرة والسريرة. وحين قطع الرجل أمله من إصلاح ابنه، طرده عنه قائلاً له: «إنك لن تصير آدمياً».

وذهب الابن هذا ودخل في الجندية حيث أظهر تفوّقاً وصار يرتقي إلى أن أصبح، بعد وقت طويل، «صدراً أعظم»، أي رئيس وزراء، في الأستانة. وفطن حينئذٍ إلى والده الذي حكم عليه حكماً مطلقاً أنه لن يصير آدمياً، وأرسل يستدعيه تحت الحفظ، دون أن يُخبر أحداً أن المطلوب إحضاره هو أبوه.

وسيق الرجل مخفوراً ذليلاً من مدينة ديار بكر النائية إلى الأستانة، التي قيل إن «المطلوب إليها مفقود، والخارج منها مولود»، بسبب ظلم حكامها وسؤ معاملتهم لرعاياهم. وهناك استدعاه الصدر الأعظم إليه، فمثل بين يديه محني الظهر مرتعداً من الخوف، دون أن يتجرأ ويرفع نظره إلى الصدر الأعظم.

فسأله الصدر الأعظم عن ابنه. فظنَّ الرجل أن ابنه هذا، لا بد أن يكون قد ارتكب جريمة في حجم الخيانة العظمى، وهو ما استوجب إحضاره بهذه الطريقة المخزية إلى الأستانة. فقال

وهو يرتعد من الخوف: «إبني المذكور، يا سيدي، كان سيء السيرة والسريرة، رديء الأخلاق. وحينما يئست من جعله آدمياً تبرأت منه وطردته عني منذ وقت بعيد، وأنا لا أعرف عنه شيئاً، ولست مسؤولاً عنه».

قال الصدر الأعظم: «أنا هو ابنك.. وها قد أصبحت صدراً أعظم».

فرفع الرجل هامته وحدّق ملياً في وجه ابنه، وقال: «أنا لم أقل إنك لن تصير صدراً أعظم.. لكنني قلت إنك لن تصير آدمياً، وما زلت عند ظنّي فيك».

البَابُ الثَالِث:

الجنّة بلا ناس ما بتنداس

عِندمَا بَكىٰ سُلطان بَاشا الأطرش

اشتدّ لهيب الثورة السورية، بقيادة سلطان باشا الأطرش، خريف **١٩٢٥** وامتد سعيرها حتى أطراف جنوب لبنان، فدخلت قريتي إبل السقي، سلمياً، حملة من الثوار بقيادة حمزة بك الدرويش، تفرق رجالها، ضيوفاً، على بيوت القرية. وكان نصيب ابن عمي إبراهيم الراسي ثلاثة من قادة الحملة هم فؤاد سليم ونزيه المؤيد العظم، اللذان كانا أعزلين من السلاح، وشكيب وهاب الذي ترك بندقيته قرب الباب، بشكل أغرى أحد الأولاد بحملها، بكل عفوية، فانتزع إبراهيم البندقية من الولد وعنفه بقسوة. فانكسر خاطر الولد وأنزوى جانباً وراح يبكي.

فما كان من شكيب وهاب إلا أن استرصى الولد وسلمه البندقية وطيب خاطره وأجلسه قربه وقال له: «لو لم أكن في حاجة إلى بندقيني لتركتها إليك».

كان شكيب وهاب من أقطاب الثوارت والحركات المسلحة في لبنان وسوريا، وقد اقترن اسمه بالرجولة والعنف ولا سيما

في معركة الفالوج في سوريا وفي أحداث دامية أخرى متنوعة. وبعد إخفاق الثورة السورية سنة **١٩٢٦** رافق سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة، في منفاه إلى شرقي الأردن، وبعد عقود مليئة بالأحداث والذكريات رجع شكيب وهاب إلى مسقط رأسه في قرية غريفة ـ الشوف، ليعيش آخر أيامه مع بني قومه.

وقصدته يوماً، في بيته، وسألته إذا كان لا يزال يذكر مجيئه إلى إبل السقي سنة **١٩٢٥** ونزوله في ضيافة إبراهيم الراسي مع رفيقيه فؤاد سليم ونزيه المؤيد العظم.

قال: «أذكر ذلك ولا أنساه».

ثم سألته عما إذا كان يستطيع أن يتذكر حادثة الولد والبندقية في بيت إبراهيم الراسي.

قال: «وأتذكر ذلك أيضاً».

قلت: «أنا هو ذلك الولد الذي طيبت خاطره ورفعت شأنه، وهانذا أَجيء الآن، بعد خمس وثلاثين سنة، لأشكرك».

فعانقني الشيخ شكيب، حينئذٍ، ورحب بي ترحيباً حاراً.

وسأل أحد الحاضرين في المجلس، كيف أجاز الشيخ شكيب لنفسه أن يترك بندقيته قرب الباب ويدخل أعزل وهو مسؤول عن نفسه وعن رفيقيه.

قال: «أردت تطمين صاحب البيت أنني لا أضمر له سوءاً،

وأنني كذلك لا أخاف منه شراً، وهذا هو منتهى الرجولة.. ولا سيما أن رفيقيّ فؤاد سليم ونزيه المؤيد العظم كانا يعرفان إبراهيم الراسي، رفيق دراستهم في الجامعة. ويثقان به تمام الثقة».

وسأله سائل آخر، لماذا صرف كل اهتمامه إلى معالجة مشكلة ولد تصرف تصرفاً طائشاً.

قال: «الإنسان يبكي من ثلاثة أسباب: من وجع ومن حزن.. ومن «كسرة خاطر». والشهامة تقضي معالجة مكسور الخاطر قبل معالجة الموجوع والمحزون، لذلك لم أطق رؤية ولد يبكي من انكسار خاطره. وهذا الولد الذي صار رجلاً، جاء الآن، بعد خمس وثلاثين سنة، يشكرني على جبر خاطره، ومَن أراد أن يعتبر فليعتبر».

وانتقل بنا الحديث إلى البكاء من «كسرة الخاطر»، فقال الشيخ شكيب إن سلطان باشا الأطرش بكى مرةً واحدة في حياته، وهو الذي قاد المعارك الطاحنة، ورأى الشهداء من رجاله يسقطون حوله، وبقي رابط الجأش.

فسألناه: «ولماذا بكى سلطان باشا؟»

قال: «بكى سلطان باشا حين رأى بعض رجاله، في المنفى، يتقاسمون رغيفاً واحداً».

كان ذلك بعد لجوء سلطان باشا ورفاقه، ومنهم شكيب وهاب

عقيب الثورة إلى النبك في شرقي الأردن، حيث عاشوا في وادٍ مقفر عانى فيه سلطان باشا ورفاقه شظف العيش.

ويشير الأمير عادل أرسلان - أمير السيف والقلم، وأحد رفاق سلطان باشا في الثورة، وفي منفاه الاختياري - إلى حادثة اقتسام الرغيف في أبيات منها:

يا ساهراً في النبكِ أين الأولى   أنت من الشوق إليهم قريحْ
في مهمهٍ قفرٍ كأنَّ السما   لم تروه بالقطرِ من عهد نوحْ
إنسانه ضبٌّ، وأشجاره   شيحٌ، وأصوات التغنّي فحيح
وعصبةٍ عرباء فوق الثرى   لكنها من مجدها في صروحْ
أخرسها الصبر ومن حقّها   من طول ما عذبها أن تصيحْ

. . .

كل رغيفٍ أهله تسعةٌ   كأنّما صلى عليه المسيحْ



«... وسيفُك مثلُ ضيفِك لن يجوعا»
الشاعر القروي

ياما قرينا بالديار ضيوفْ   ياما حمينا بالحمى ملهوفْ
ياما اعتبرنا الجار قبل الدارْ   ويـاما رعينا العهدْ والمعروفْ

مَن سَاوَاكَ بنفسِهِ مَاظَلمك

اشتهر الدكتور مصطفى خالدي بزاويته المطلة على شارع بلس، أمام الجامعة الأميركية في بيروت! والتي كان يكتب عليها شعاراته الأسبوعية داعياً الناس بواسطتها إلى مفاهيم وطنية واجتماعية.

كان الدكتور خالدي طبيباً يغصّ مستشفاه بالناس. مع ذلك كان يترك لنفسه متسعاً للكتابة والتفكير والتأمل في الحياة، وكان لا يبرح يحاول توجيه الناس، بعبارات يكتبها على لوح معلق على زاوية حائط مستشفاه، إلى إحقاق الحق ونصرة قضايا التحرير.

وكان أبناء المحلة الذين تآلفوا مع شعارات الدكتور خالدي يعبرون ويقرأون ويتناقشون.. لكن أكثر الناس اهتماماً بها كان أبو محسن، زبال المحلة، الذي كان يهمه أن يباشر عمله، كل صباح، في تنظيف الشارع، تحت الشعار وحوله، فإذا حظي بالدكتور خالدي، ناقشه في موضوع حكمته الأسبوعية كمَنَ له باع طويل في البحث والتحليل.

وحدث يوماً أن أضرب عمال التنظيفات في بيروت طالبين زيادة أجورهم، لتأمين زيادة أكلاف معيشتهم. وتكدست النفايات في الشوارع، وصارت تُشاهد أحياناً، بعض السيدات وهنَّ يقمن بكنس مداخل البنايات، كما يُشاهد بعض الرجال وهم يحملون أكياس النفاية ويطرحونها على الأرصفة. وهذا ما أثار موجة من الاستنكار عند المواطنين.

وجاء الدكتور خالدي ذات صباح، ليكتب أسبوعيته المعهودة، فصبّحه أبو محسن وطلب منه أن يُعير عمال التنظيفات إلتفاتة كريمة، بواسطة زاويته التي كانت دائماً مع الحق ويجب أن تبقى كذلك، قائلاً إن عمال التنظيفات يقومون بأحقر الأعمال ويتقاضون أبخس الأجور.

قال الدكتور خالدي: «ولكنكم تماديتم بإضرابكم وتحديتم مشاعر أهل المدينة، فأسأتم إلى كرامات الناس».

قال أبو محسن: «وهل كرامات الناس هنا هي أرفع قدراً من كرامة الخليفة هارون الرشيد الذي قبل الإساءة إحقاقاً للحق».

قال الدكتور خالدي: «وكيف كان ذلك؟»

قال أبو محسن: «يُحكى أن الخليفة هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي تدروشا وخرجا إلى الصيد. وحدث أن عبرا أمام أعرابي يجلس إلى جانب الطريق وهو خالي الذهن عمَّن

هما. ولما كانت التقاليد العربية توجب على الماشي أن يسلم على الجالس، لذلك قال جعفر البرمكي للأعرابي:

«السلام عليك، يا كلب العرب». بدلاً من قوله «يا أخا العرب» كما كان يجب أن يقال.

فانتصب الأعرابي واقفاً وقال: «إنك أهنتني، دون أن تعرف مَن أنا، وقبل أن تقول مَن أنت، ولذلك أطلب مقاضاتك بثمن شرفي أمام قاضي المدينة».

قال جعفر، مشيراً إلى هارون الرشيد: «هذا قاضٍ، هل تقبل أن يقضي بيني وبينك؟»

قال الأعرابي: «أقبل إذا كان صاحبك هذا قاضياً، وقضى بالحق».

قال هارون الرشيد للأعرابي: «قضيت لك بدرهم ثمن شرفك».

قال الأعرابي: «وهل صار الدرهم، وفي عهد الخليفة هارون الرشيد، ثمن شرف مَن يقال له يا كلب العرب!»

قال الرشيد: «نعم! الدرهم هو ثمن شرف مَن يقال له يا كلب العرب».

فتناول الأعرابي درهمين من جيبه وقال: «خذا، إذاً، هذين الدرهمين، يا كلبين من كلاب العرب».

فامتشق جعفر سيفه لينحر الأعرابي. فزجره الخليفة هارون

الرشيد وقال: «أرجع سيفك إلى غمده، ومَن ساواك بنفسه ما ظلمك!»

وكان الدكتور خالدي، كلما روى هذه المروية يضيف أنه استعار يومئذٍ ـ وعن لسان أبي محسن، زبال المحلة ـ عبارة هارون الرشيد، وجعلها حكمة زاويته الأسبوعية.

"مُستعملة"

ما إن وطأت أقدام الفرنسيين بلادنا سنة ١٩١٩ حتى تسرّبت مدنيتهم إلى رؤوس قلّة من رجال السياسة في لبنان خلعوا طرابيشهم ولبسوا القبعات الفرنسية تمشياً مع سياسة العهد الجديد، فكانوا مثار استنكار مجتمعاتهم.

ويشير إلى ذلك الشاعر البيروتي مصباح رمضان في بيتين من الشعر ضمّنهما تورية لا تخفى على ذوي الألباب، قال:

مقلّد الإفرنج في ملبوسه
خفيف عقل، دمه ما أثقلهْ
يقول إن قبعتي جديدة
معْ أنها في رأسه «مستعملهْ»

بَعلبَك

كان شاعر القطرين خليل مطران كثير الاعتداد بمسقط رأسه بعلبك وبأبنائها الذين شيّدوا هياكلها قديماً، فكانت إحدى عجائب الدنيا السبع، وكان يردد في المناسبات قولاً مأثوراً منسوباً إلى الأمبراطور غليوم وهو: «المجد لهذا الشعب الذي يصنع العجائب وينسبها إلى الأنبياء».

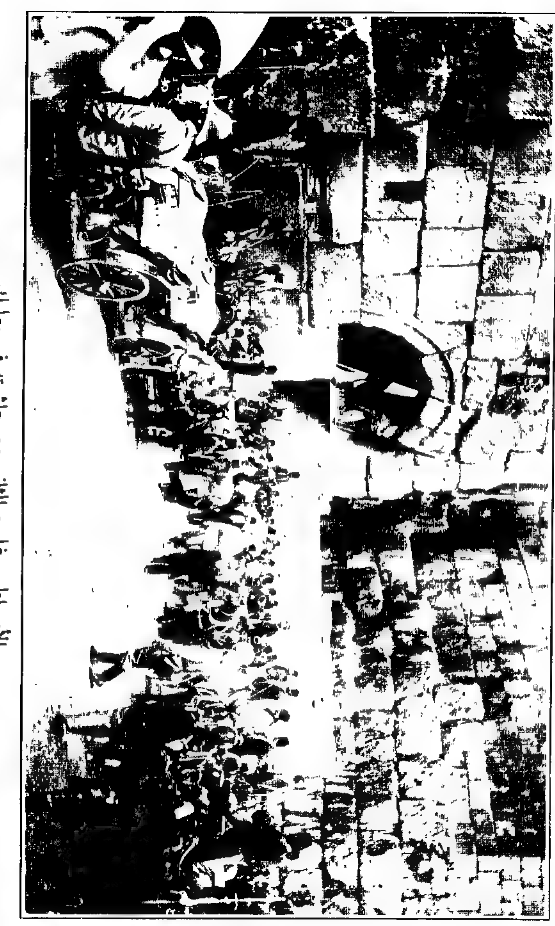
زار الأمبراطور غليوم الثاني، عاهل المانيا، بلاد المشرق سنة ١٨٩٨ مروراً بالآستانة فحيفا فالقدس فبيروت فبعلبك فدمشق، وقيل إنه جاء حاجّاً إلى مهد المسيح. وقيل إنه جاء ليدعم نفوذ السلطان عبد الحميد على عرش بني عثمان امام مكائد دول أوروبا. . وقيل إنه جاء يحاول اكتشاف سرّ بنيان قلعة بعلبك الخالدة، التي كان قد أرسل، قبل مجيئه إليها، بعثة من كبار علماء الآثار لهذه الغاية، ولكن، قيل إن السر بقي مغلقاً، ولا سيما أن وزن الحجر الواحد من حجارة بعلبك، بالنسبة إلى قياسات حجمه، كان ٧٥٠ طناً. فكيف إذاً، استطاع أبناء بعلبك في ذلك الزمان، قطعه ونقله وبنيانه

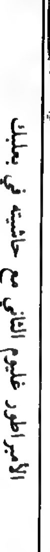
بنياناً محكماً، بالإضافة إلى نقل بعض الأعمدة العظيمة من مصر، رغم بعد المسافة ووعورة المسالك بين مصر وبعلبك.

ويروي الرواة أن شيخاً زاهداً كان ينقطع إلى العبادة في أروقة القلعة، يوم زارها الأمبراطور غليوم، وبعدما طاف غليوم في هياكل القلعة، وفيما هو مأخوذ بروعة ما رأى، انتبه إلى وجود رجل شيخ يجلس في إحدى الزوايا غير مبالٍ بما كان يحدث حوله، فاقترب منه غليوم وسأله: «مَن شيّد هذا البنيان العظيم؟»

قال الرجل: «شيّده النبي سليمان في قديم الزمان».

فقال غليوم: «المجد لهذا الشعب الذي يصنع العجائب وينسبها إلى الأنبياء».





الأمبراطور غليوم الثاني مع حاشيته في بعلبك

كمَالة عـَـدَد

لجأ الفلسطينيون إلى لبنان جماعات وأفراداً، فتوزعت الجماعات في المخيمات واعتصمت بهويتها الفلسطينية على أمل العودة مهما طال الزمن، وتفرق الأفراد في المدن اللبنانية حيث راحوا يبحثون لهم عن هويات لبنانية، واستطاع أن يحصل عليها بسهولة كل من كان اسم عائلته: خوري أو حداد أو نجار أو خياط أو صايغ أو غير ذلك من اسماء العائلات المشتركة في فلسطين ولبنان.

ووقف يوماً في باب مختار رأس بيروت المرحوم جرجي ربيز رجل قال إنه فلسطيني الهوية بيروتي الأصل اسمه عنيد العسقلاني ويريد أن يستعيد جنسيته اللبنانية بأي ثمن كان.

قال المختار: «لا أنت من بيروت ولا جدك هو من جماعة «كمالة العدد» كما يدل اسمك واسم عائلتك، لكي يحق لك أن تكتسب الجنسية اللبنانية».

فسألنا المختار عَمَّن هم جماعة «كمالة العدد» الذين يحق للرجل أن يحصل على الجنسية اللبنانية بواسطتهم.

قال المختار إن «كمالة العدد» هذه لها حكاية تاريخية تقول أن تدبيراً احترازياً، بعد أحداث ١٨٦٠، بين الفرنسيين والأتراك! قضى بنفي أربعة وثمانين رجلاً درزياً إلى طرابلس الغرب. وقبل نقلهم من الشوف إلى بيروت، لتسفيرهم منها أُخلي سبيل ثلاثين رجلاً منهم، على مسؤولية القائد التركي، بدون علم القنصل الفرنسي.

وجاء مَن أخبر القائد التركي أن القنصل الفرنسي جالس على المينا ليباشر عدّ المنفيين من الدروز، بنفسه، فخشي القائد التركي افتضاح الأمر، وأمر الجنود فجمعوا إلى المنفيين الدروز ثلاثين رجلاً التقطوهم من شوارع بيروت بطريقة عشوائية بينما كانوا سائرين، فجاء هؤلاء «كمالة عدد»[١]

ولما بلغت الباخرة عكا. في طريقها إلى طرابلس الغرب تمّ انزال «كمالة العدد» هؤلاء منها.

وأضاف مختار رأس بيروت إن البعض من جماعة«كمالة العدد» هؤلاء قد يكون بقي في فلسطين وصار له أحفاد هناك من حقّهم الآن علينا أن نعيد إليهم جنسيتهم اللبنانية.

---

(١) أشار يوسف أبو شقرا إلى هذه الحادثة الطريفة في كتاب «الحركات في لبنان».

واقعة حال

كان الشاعر عبد الحسين العبد الله موظفاً حكوميًا حين هجا إحدى الحكومات، في الثلاثينات، بقوله إنها حكومة لصوص، فقطعت الحكومة عنه رواتبه. ثم حدث أنه بينما كان يجتاز وادي جيلو وهو مكان مقفر قرب مدينة صور، تصدى له جماعة من اللصوص أرادوا سلبه فلم يجدوا في جيوبه غير بعض أشعاره. وهو يصف واقعة الحال بقوله:

قطع اللصوص ليَ الدروبَ، وقبلهم
قطعت «حكومتهم» عليَّ دروبي
خصمي الحكومة واللصوص كلاهما
شاكي السلاح لحرب كل أديبِ
ودنا إليَّ من اللصوص ملثَّمٌ
صعب المراس يكرُّ غير هيوبِ
أمسى يفتشني، وأسخر ضاحكا
فسوى القصائد لم يكن بجيوبي
وخجلتُ منه حين قال لصحبه
ما أشبه السلّاب بالمسلوب

نقصان بالحمير.. وفائض بالنسوان

اشتهرت بلدة دير القمر، في لبنان، بمَن تولى الأحكام فيها مثل الأمير فخر الدين المعني والأمير حيدر الشهابي. وبمَن نشأ فيها من حكام وزعماء ومفكرين ونواب وقضاة كان من أشهرهم القاضي إميل هنود.

ويروي العميد جميل الحسامي رئيس المحكمة العسكرية، في لبنان، سابقاً، في حديث له عما أسماه «مزالق التدقيق في التحقيق»، إن القاضي إميل هنود كان ينظر، يوماً، في دعوى خلاصتها أن رجال الدرك ضبطوا بضع نساء من إحدى قرى منطقة عكار، وهنَّ ينقلن على رؤوسهنَّ أحمالاً من الحطب المقطوع من أحراج الدولة، وأنه نُسب إلى رجال الدرك أنهم أساؤوا معاملة النساء، فانتصر لهنَّ بعض رجال القرية الذين وجبت محاكمتهم بتهمة الاعتداء على رجال الدرك في أثناء قيامهم في مهام وظيفتهم.

وسأل القاضي هنود أحد المتهمين، في سياق المحاكمة: «وهل حميركم أثمن من نسائكم حتى صرتم تنقلون الحطب على رؤوس نسائكم لا على ظهور حميركم؟»

قال الرجل: «القضية مزمنة يا سيدي القاضي. كان ذلك سبب نقصان الحمير قديماً، في بلاد عكار. لذلك صارت نساؤنا، بحكم الاضطرار تقوم بهذه المهمة الشاقة، ومع الأيام صارت هذه المهمة الشاقة من مسؤولية النساء عندنا».

فسأله القاضي: «ومن أيمتى صار عندكم نقصان بالحمير.. وفائض بالنسوان؟»

قال الرجل: «من لما هاجم الأمير فخر الدين المعني بلاد عكار وهدم قصور آل سيفا وصادر حمير بلادنا. جميعها. ونقل على ظهورها حجارة قصور آل سيفا إلى دير القمر.. بقيت الحمير في دير القمر.. وصار عندنا نقصان مزمن بالحمير...»

ولما كان القاضي إميل هنود هو من دير القمر حسباً ونسباً. لذلك تابع المحاكمة، دون متابعة مصير الحمير.

أما موضوع نقل حجارة عكار إلى دير القمر، على ظهور الحمير، فله قصة تاريخية طريفة تقول إن الأمير فخر الدين المعني الكبير أمير دير القمر، والأمير يوسف سيفا أمير عكار. الملقب «عليّ الدين» تنازعا النفوذ في البلاد. ثم تهادنا. فتزوج الأمير حسن ابن الأمير يوسف «ست النصر» ابنة الأمير فخر الدين.

لكن النار بقيت تحت الرماد، فاغتنم الأمير يوسف مناسبة

غياب الأمير فخر الدين في أوروبا واقتحم دير القمر وهدم قصر الأمير فخر الـدين وعدداً آخـر من ابنية ديـر القمر ونهب محتوياتها.

وما لبث الأمير فخر الدين أن رجع ورأى ما فعله آل سيفا في دير القمر. فقرر الانتقام. وحدث يومئذٍ أن أرسلت إليه ابنته ست النصر كتاباً ضاعف غضبه. قـالت إن آل سيفا يعيّرونها بقصر قامتها، وبقصر قامة والدها الأمير فخر الدين، الذي كان كذلك قصير القامة، في حين كان رجال آل سيفا طوال القامة. وذكرت ست النصر أن نساء آل سيفا لا يبرحـن يردّدن في مجالسهن، وعلى مسامعها، زجلية تقول:

نحنا، الطوال، رماح مشهورين
نحنا سلاسل ذهب في صدر عليّ الدين
إنتو القصار، لا شور ولا تدبير
مثل الضفادع ينقّوا في قراني البير

ويقول المؤرخون إن الأمير فخر الدين قرأ كتاب ابنته أمام حاشيته وقال زجلاً:

نحنا قصار، وفي عيون الأعادي كبار
انتو من خشب حور، ونحنا للخشب منشار
وحق طيبه وزمزم والنبي المختار
ما بعمّر الدير إلاَّ من حجر عكّار

وبر الأمير فخر الدين بقسمه، فهاجم عكار وفتك بآل سيفا وهدم قصورهم. ويقول المؤرخ لحد خاطر في كتابه «أحداث وأحاديث» إن فخر الدين نقل حجارة قصور آل سيفا ـ كما وعد ـ على ظهور الدواب إلى دير القمر، وزخرف بها بعض بناياتها. وهذه الحجارة الصفراء اللون السهل تمييزها عن غيرها، ما تزال ظاهرة في بقايا البنايات المعنية في دير القمر حتى اليوم.



إعادة اعتبار إلى الحمار

من تقاليد العرب أن الحمار لا يُدفع مهر عروس، ولا يكون مركوب عريس أو عروس، ولا يُستوفى ديّة قتيل، ولا يكون هدية أمير، ولا يُمشى فيه بمأتم، ولا يُربط قرب مسجد، لأن الحمار مشهور بقلة لياقته في التعبير عن ذاته.. ولأن أنكر الأصوات أصوات الحمير.

ومن تقاليد العرب كذلك، أن يُطاف بالزانية، أو بالزاني في شوارع المدينة على ظهر حمار، بالمقلوب، بحيث يكون وجه المطوّفة - أو المطوّف - إلى ناحية ذيل الحمار، وذلك إمعاناً في تحقيرهما. أما المقتول برفسة حمار، فلا يندبه النادبون، لأنه يكون قتيل عار.

ومن مزايا قلّة مروءة الحمار أنه إذا عبر فوق ماء جارٍ حرن ووقف وشرب على مهله، ثم ما لبث أن بال بالماء، وإذا بال حمار في مكان ما، بال كل حمار آخر يمرّ فيه، ولذلك يقول المثل العربي: «بال حمار فاستبال أحمرة». وهذا المثل يقال

في جماعة مثل الحمير يتبع بعضهم بعضاً ولو كان بعضهم على خطأ.

وكلمة «حمار» معناها، في مفهوم العامة، إنسان قليل الاعتبار، وإذا أردنا أن نصف الغشيم أو البليد، قلنا إنه حمار. وقد أراد أحد الشعراء أن يصف الأحمق، فلم يجد بدًّا من تشبيهه بالحمار، قال:

يبطر الأحمق في نعمائه   فإذا ولَّت، تولّاه الحنقْ
كحمار السوء إن أشبعته   رفس الناس، وإن جاع نهقْ

. . .

كانت بعثة النقطة الرابعة الأميركية التي قدمت إلى لبنان، في الأربعينات، لتطوير الزراعة فيه، قد انفقت بعض أموالها.. وجهودها في الاحصاءات المنوعة والمتفرقة، لكي تبني على الشيء مقتضاه. وجاء أخيراً تقريرها النهائي المفصل وفيه أن عدد الحمير في لبنان يناهز الأربعين ألف حمار. مع توصية بكيفية تحسين نسل الحمير وتطوير أنواعها في لبنان.

في تلك الحقبة من تاريخنا كان على كل شاعر أو خطيب يقف على منبر أن يصف لبنان أنه مسقط الوحي والإلهام ومصدر الإشعاع إلى سائر الأنام. فعلق مارك الرياشي في زاويته المحببة في جريدة النهار، على تقرير النقطة الرابعة بقوله:

«ولماذا هذا الاهتمام بتحسين نسل الحمير الذي لا يتفق

مع شعارات الإبداع والإشعاع والخلق والتحرير، لو لم يكن ثمة سوء نية مبيته، في تقرير النقطة الرابعة، يجب استدراكها قبل تفاقم خطرها».

وعلق رياض طّه بكلمة شكر فيها جهود النقطة الرابعة التي استطاعت أن تُحصي لنا عدد الحمير في لبنان، في حين يتعذر علينا إجراء أي إحصاء لعدد اللبنانيين، بعد آخر إحصاء رسمي سنة **١٩٣٢**.

ولم يطل الوقت، بعد جهود النقطة الرابعة لتحسين نسل الحمير، حتى بدأت أسواق لبنان تغرق بالسيارات والشاحنات والجرافات والدراجات وسائر الآليات، ودخلت الحمير، في معركة مصير غير متكافئة مع هذه المتحركات الجهنمية. ولو قدمت إلى لبنان، الآن، نقطة أميركية خامسة، أو سادسة، وتفضلت علينا بإحصاءات جديدة، لما وجدت عندنا أكثر من ألف حمار، لأن الحمار، دون سائر البهائم، كان أول ضحايا التطور، في جميع أنحاء العالم.

* * *

اشتهرت جزيرة قبرص، قديماً، بعراقة حميرها. وكانت تجارة الحمير القبرصية، قبل دخول السيارات في حياة الناس، من أسباب الثراء في لبنان. ويقال إن أحد زعماء جبل عامل (لبنان الجنوبي) كان تاجر حمير قبرصية واغتنى، وصار نائباً

محسوباً في خانة الانتداب الفرنسي، فداعبه احد شعراء الجنوب بقصيدة مطلعها:

أمن بيع الحمير القبرصيّةْ   إلى بيع البلاد العامليةْ

ومن دعابات إميل لحود، أحد أشهر رجال الظرف السياسي، أن رجل علم ناجحاً. جنح إلى السياسة، فصار وزيراً للتربية، لكنه اعتمد على نظافة ضميره، وعلى أسلوب تفكيره في تدبير شؤون وزارته، لذلك فشل وخسر الوزارة.. وخسر رصيده المعنوي. وجاء إميل لحود يزوره، فوجده يحزم حقائبه. فسأله، «إلى أين!» قال: «إلى قبرص».

فقال له إميل لحود بظرفه المعهود: «مَن كان مثلك يُؤتى به من قبرص، ولا يؤخذ إلى قبرص، فهل تراه انقلب الزمان في لبنان!»

وانقلب الزمان أخيراً في لبنان. صارت قبرص الآن محط رحال اللبنانيين إلى المتاهات البعيدة. وبدلاً من استيراد الحمير من قبرص، صرنا نصدِّر إليها، بصورة جماعية، مئات العائلات طلباً للراحة والأمان.

ومع تزايد الخوف على المصير، في خضم معارك التدمير، تراجع الكلام عن الإشعاع والإبداع والتحرير. وحلت محل هذه الشعارات عبارات الخطف على الهوية وتفخيخ السيارات وارتفاع الأسعار وازدادت الحالة سوءاً بانقطاع الكهرباء والماء

وبغلاء البنزين والمازوت وقطع غيار السيارات.. وشعر اللبنانيون مجدداً بحاجتهم إلى خدمات الحمير. وبئس المصير.

وفي آخر الأخبار أن أحد التجار فطن إلى الحمير القبرصية والمثل يقول: «متى أفلس التاجر، فتّش عن دفاتره العتيقة».، وخطف التاجر رجله إلى قبرص في محاولة شراء ما يتيسر من حميرها، لتأمين حاجات اللبنانيين إليها، فوجد أن القبارصة الذين اضطلعوا بأسباب الحضارة، باتوا لا يعرفون شيئاً عن تجارة الحمير، في حين يفكر اللبنانيون أخيراً، بإعادة الاعتبار إلى الحمار، بحكم الاضطرار، وربما، لكي يتابعوا مسيرة الإبداع والتحرير على ظهور الحمير، ولكي يصح فينا أخيراً قول الشاعر:

لما غدت أذنابنا في رؤوسنا
غدونا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

«لا تاخذوا مِنّا ولا تعطُونا!»

اشتهرت قرية كفرحونة في قضاء جزين، في جنوب لبنان، بمثل شعبي يقول: «يا أهل كفرحونةْ، لا تأخذوا منّا، ولا تعطونا!»

ولما كان لا بدّ أن تكون لكل مثل شعبي محلّي حكاية، فإن حكاية أصل هذا المثل كانت من مرويّات المحامي أسعد عازار من جزين، قال إن شاباً من قرية كفرحونة خطب فتاة من قرية باب مارع في البقاع الغربي، وأوفد وفداً في طلبها.

وحضر هؤلاء إلى باب مارع على ظهور الحمير ومعهم فرس واحدة مركوب العروس، لأن ذلك كان قبل عهد السيارات. وحدث أن خوري باب مارع أصرّ على مواكبة العروس، وقضت اللياقة أن تُعرض الفرس عليه، فامتطاها. ونُقلت العروس على ظهر حمار إلى كفرحونة.

لكن القوم في كفرحونة، ما أن شاهدوا العروس على ظهر الحمار، حتى غضبوا ورفضوا تسلّم العروس عن ظهر حمار،

قالوا هذا عار، أكبر عار، على قريتنا وشؤم على الجميع. وهكذا أُعيدت العروس على ظهر الحمار إلى قرية باب مارع، لكي يُعاد إحضارها إلى كفرحونة على ظهر فرس، لأن «الخيل معقود في نواصيها الخير».

إلا أن ذوي العروس، في باب مارع غضبوا هم، بدورهم، لرجوع ابنتهم مكسوفة الخاطر إليهم واحتفظوا بها حفظاً لكرامتهم، وقالوا:

«يا أهل كفرحونهْ، لا تأخذوا منا ولا تعطونا!»

وجرى كلامهم مجرى الأمثال إلى يومنا هذا.

أبوزَيْد خَالوُ

يُحكى أن الحاج حسين العويني، رئيس الحكومة اللبنانية سابقاً، لاحظ كثرة الذين يحملون لقب «شيخ» بين موظفي ديوان حكومته، فكلف رئيس الديوان إجراء تحقيق لمعرفة أصول مشيخة كل واحد من هؤلاء.

وبعد إجراء التحقيق وجمع المعلومات المتوافرة رجع رئيس الديوان وقال إنه وجد في الديوان خمسة موظفين يحملون لقب شيخ، منهم أربعة مشيختهم كاذبة لا أساس لها، والخامس مشيخته صحيحة لا شائبة عليها.

فسأله الحاج حسين: «وكيف تأكدت من صحة مشيخته؟»

قال: «علمت أن جد الرجل كان «شيخ كلاب» عند أحد أمراء جبل لبنان، فانتقلت المشيخة، بالإرث، إلى حفيده هذا».

وحكاية مشيخة الكلاب هذه يشير إليها رستم باز في مذكراته عن الأمير بشير الشهابي الكبير، عند ذكر أصحاب

الوظائف في ديوان الأمير، في بيت الدين، ومنها وظيفة «شيخ كلاب الصيد» التي كان يشغلها عساف بولس وأخوه طنوس من المختارة وراتب كل واحد منهما ٥٠٠ قرش.

* * *

ومن مرويات أبي إبراهيم مصطفى الداعوق أن الحاج حسين بيهم كبير زعماء بيروت، في القرن الماضي، كان يقتني عشرة كلاب صيد يسوسهم رجل تركي اسمه نوبر، واسم وظيفته «راعي الكلاب»، لا شيخ الكلاب، لأن المشيخة، ما عدا مشيخة رجال الدين، كانت غير لائقة وغير مشروعة في مدينة بيروت، خلافاً لما كانت عليه في جبل لبنان، حيث يكثر عدد الشيوخ وهم رجال الدين، وعدد المشايخ وهم الزعماء وكبار القوم.

ومع وفرة الزعماء وكبار القوم في بيروت، فقد ندر مَن حمل منهم لقب شيخ، بسبب سهولة انتحاله.

ويضيف أبو إبراهيم إن خلافاً وقع، يوماً، في إحدى مناطق الجبل، حول مَن يحق له أن يتناول القهوة أولاً: الشيوخ أم المشايخ، أي رجال الدين أم كبار القوم. وبعد جدال طال اكتشف أحد أصحاب الرأي فتوى تقول: «إذا جئت بالقهوة، إبدأ بمَن عن يمينك، ولو كان أبو زيد عن شمالك!»

* * *

فمَن هو أبو زيد هذا الذي كان أرفع قدراً من الشيوخ والمشايخ، وما هو موقعه في مفهوم القصص العربي!

هو أبو زيد الهلالي بطل تغريبة بني هلال إحدى أشهر ملاحم العرب في التاريخ، والذي كانت له إحدى وثلاثين أختاً تزوجن فأنجبن له مئة وسبعة أبناء أخت، أخذوا جميعهم مزايا الأبطال، عن خالهم البطل، ولذلك يقال: «الإبن ولو بار تلتينو للخال».

وهكذا صار أبو زيد الهلالي أشهر بطل.. وأشهر خال في تاريخ العرب، وبقينا نقول، على سبيل المثال: «داري حالك! ولو كان أبو زيد خالك». و«المديون ذليل، ولو كان أبو زيد خاله». ـ ولا نقول «عمه» مثلاً ـ لأن أبا زيد الهلالي اشتهر كخال، لا كعم، في التاريخ.

* * *

يُنسب إلى العلامة الدكتور أسد رستم قوله: «إذا أردت أن تعيش مكرّماً في لبنان، يجب أن يكون خالك أبو زيد الهلالي.. أو أبو عفيف كريديه».

وأبو عفيف كريديه هذا كان أحد كبار قبضايات زمانه والذي اشتهر بصدق صداقته لكبار القوم.

ويقال إن الدكتور رستم قال مقولته تلك حين ذهب يوماً لزيارة محافظ مدينة بيروت، فسأله الحاجب على الباب عن اسمه.

قال: «أنا الدكتور أسد رستم».
فسأله الحاجب عن نوع عمله.
قال: «أستاذ تاريخ».
فأشار الحاجب عليه أن يقف جانباً وينتظر دوره.
فامتثل الدكتور رستم ووقف جانباً ينتظر مرور مَن يعرفه ويعرّف عليه. فجاء رجل. فسأله الحاجب عن اسمه. قال: «أنا فلان.. وخالي أبو عفيف كريديه».
قال الحاجب: «أنعم وأكرم! تفضل!».

* * *

كان على كل رجل في ذلك الزمان، وحتى الآن، ان يكنى باسم ابنه البكر، فيقال له أبو فلان، حفظاً لمقامه. ومعنى التكنية باسم الابن تعني ان الرجل أنجب أبناء ذكوراً يحمون ظهره ويأخذون بثأره ويحملون اسم عائلته. لذلك يقال: «مَن خلّف ما مات».

إلا أنه خلافاً لهذا التقليد، فقد تكنى الأمير بشير الشهابي باسم ابنته سعدى، لأن المنجمين أنبأوه، قبل ولادتها، بأنه سيرى السعد في وجه المولود المنتظر، ولو كان أنثى. وقيل إن المنجمين صدقوا مع الأمير بشير - ولو كذبوا - لذلك سمى المولودة سعدى، وتكنى باسمها.

ويقول إميل باز، حفيد رستم باز مرافق الأمير بشير إلى منفاه في الأستانة، إن أبا عساف جريس باز، زعيم نصارى

ذلك الزمان، كان يعيب على أمير جبل لبنان، أن يكنى باسم ابنته سعدى، لا باسم ابنه خليل مثلاً، محرضاً بذلك الأمير خليل على أبيه الأمير بشير وعلى ابنته سعدى التي لم يرتح لها بال حتى ارتاحت من أبي عساف نهائياً، حين اغتاله الأمير بشير في دير سيدة التلة، كما هو معروف في التاريخ.

ويقول السيد باز إن كثرة المشايخ في جبل لبنان، تعود إلى كون مجلسي الأمير كانوا يحاذرون التكني بأسماء أبنائهم في مجلسه، ولأن الأمير كان يستلطف قول أحدهم للآخر، «يا شيخ فلان»، بدلاً من «يا أبو فلان». هذا، ولا سيما أن أكثر أبناء جبل لبنان، من الدروز والموارنة، كانوا لا يحجون، ولا يكسبون لقب حاج الذي كان يغني صاحبه عن التكني باسم ابنه.

ولذلك - يقول السيد باز - كثر عدد المشايخ، أي الذين يحملون لقب شيخ، بين الدروز والموارنة في جبل لبنان، وندر بين المسلمين الذين كانوا يحجون مكة المكرمة، وبين الأرثوذكس الذين كانوا يزورون قبر السيد المسيح، فيصيرون حجاجاً، بما في ذلك من رموز الكرامة.

وقد كان أحمد باشا الجزار أشهر حاج مسلم في القرن الماضي، كما كان الامبراطور غليوم الذي زار قبر السيد المسيح، في أواخر القرن الماضي، وسُمي الحاج غليون، أشهر حاج مسيحي في بلادنا.

* * *

ويقال إن الشاعر الشعبي الندّاب خليل روكز دُعي ليندب في مأتم رجل من كرام القوم، في محلة جسر الباشا، في ضواحي بيروت.

فسأل: «هل كان الفقيد شيخاً؟»

قالوا: «كلا»

قال: «وهل كان الفقيد حاجاً»

قالوا: «كلا».

قال: «وما هي كنية الفقيد.. أبو؟»

قالوا: «لم تكن له كنية، لأن أولاده كانوا جميعاً من البنات».

«قال: «لا هو شيخ.. ولا هو حاج.. ولا هو أبو فلان.. وماذا تريدون مني أن أقول عنه غير أنه مات وحوله ست سبع بنات؟»

الجـنّ، قبـل أن نَجـنّ

يتردد حديث الجنّ، مجدداً، على ألسنة اللبنانيين، بعدما انطفأ خبره منذ منتصف القرن الحالي. ومما يُذكر أن مدينة بيروت أنيرت بالكهرباء سنة ١٩٠٢، وكان يحدث في ذلك الوقت أن تُشاهد في الصباح عدة مصابيح كهربائية في الشارع وهي محطمة، فيقال إن الجن حطموها ليستطيعوا أن يخرجوا من مخابئهم في الظلام، لأن الله خلق الليل للجن مثلما خلق النهار للأنس، والجن والأنس هما «أمة الثقلين»، كما هو معروف.

هكذا انتهى خبر الجن في وسط بيروت بعد إنارة شوارعها بالكهرباء، وبقيت للجن جيوب في بعض أطراف المدينة حيث تعايش الجن مع الناس بكل محبة.

ويذكر عتاق الرجال في رأس بيروت أن معبور خندق ديبو، في محلة الحمراء، كان مسكوناً بالجماعة - و«الجماعة» هي كلمة تطلق تأدباً على طائفة الجن - وانه كان يحدث أحياناً أن

يضيع ولد، ليلاً، في خندق ديبو، فتحمله إحدى نساء الجن وتأتي به إلى بيت ذويه.

ومن حكايات خندق ديبو كذلك أن رجلاً عبر ليلاً ووجد امرأة عجوزاً وهي ترتجف من البرد وأَشفق عليها وحملها إلى بيتها، وفي الليلة التالية وجد حماراً حيث كانت المرأة وركب عليه وجاء به إلى بيته. وقد أشار كمال ربيز، في كتابه عن رأس بيروت، إلى هذه المروية، فذكر أن المرأة لم تكن إلا جنية صارت في الليلة التالية حماراً ما لبث أن قال للرجل «حملتني أمس وحملتك أنا اليوم». هكذا تآلف الأنس والجن في رأس بيروت التي اشتهرت بالتآلف بين الطوائف إلى يومنا هذا.

وكانت آخر أخبار الجن، في الأربعينات، خلال ليالي التعتيم، بسبب الحرب، أن رجلاً ضل طريق بيته ليلاً وسقط في حفرة، وما لبث أن رأى رجلين يحملانه إلى بيته. ولما أراد أن يشكرهما اختفيا في مثل لمح البصر، فعرف أنهما من الجماعة. ولعل هذه الحادثة كانت آخر مآثر الجن في بيروت.

كان أبو سبع صالح الحبال ـ أغنى رواة الأخبار في أسرار الجن ـ بائع حليب متجولاً على ظهر جحش قبرصي أزرق.. ولما أَربت سنه على المئة، وأربت سن الجحش على العشرين، باع الجحش وتقاعد واقتعد حافة رصيف شارع عبد العزيز، وقعدت إلى جانبه أتسقّط أخبار بيروت لمئة سنة خلت.

قال أبو سبع: «أنا ـ الله ينجّينا من قولة أنا» ـ حضرت في أيام حداثتي أحد أعراس الجن، تحت أشجار نهر الكراوية. ونهر الكراوية هذا هو نهر شتوي كان ينبع في المكان المعروف الآن باسم راس النبع، في بيروت، وينحدر شمالاً مخترقاً الأسواق التجارية التي صارت خطوط تماس بين المتحاربين في الوقت الحاضر.

ويضيف أبو سبع، ان أشجار الصفصاف كانت تخيم على جانبي مجرى النهر، وان جماعات من الجن كانت تأتي ليلاً، من محلة عين التينة، في بيروت الغربية، ومن الأشرفية في بيروت الشرقية، وتقيم أعراسها تحت ضوء القمر، في ظلال الصفصاف.. يوم كانت هنالك بيروت واحدة، لا بيروتان، كما هي الآن.

* * *

واستعرت الحرب، أخيراً، في لبنان، وانقطعت الكهرباء مجدداً عن أسواق بيروت التجارية التي اقفرت من أبنائها. وغرقت المدينة، ولمدة طويلة، في ظلام حالك. وخيمت النباتات والحشائش البرية في شوارعها حيث كان يجري نهر الكراوية قديماً.

وقيل مؤخراً، ان بعض العابرين ليلاً في المحلة صاروا يسمعون أصواتاً غير مألوفة أشبه ما تكون بعزيف الجن.. وراجت إشاعة تقول إن الجن رجعوا، مع رجوع الظلام، إلى

قواعدهم سالمين، ولوحظ أن حدة التراشق عن جانبي خطوط التماس، خفت منذئذٍ، والله أعلم.

مات الراوية أبو سبع عن مئة سنة وسنة وهو يلهج بمآثر الجن كدعاة وفاق ووئام، فليته تريث في ارتحاله ريثما رجع أصدقاؤه الجن، لعله يجد لهم دوراً في إحلال السلام.

ورحم الله الشاعر القروي الذي مات عن مئة سنة إلّا سنة، قبلما تفاقمت الأحداث، مدركاً أي مصير ينتظر لبنان، فقال:

لبنانُ يرسفُ في أغلال محنته
ولا يُقال له: «لبّيكَ لبنانُ»
إذا تخاذل أهل الرأي وافترقوا
فاستنهضِ الجنَّ! إن الجنّ معوانُ

سَبَقَ السَّيفُ العَذَل

تولى القاضي الشيخ سعيد زين الدين رئاسة محكمة الجنايات، سابقاً، في لبنان، وتميّز بالتدقيق في التحقيق، حتى قيل إن أحكامه كانت، غالباً، لا تستأنف، لأنه كان لا يترك فيها أي ثغرة ينفذ المحامون من خلالها إلى طلب إعادة النظر. مع ذلك كان يقول في مجالسه: «هل رأيتم أو سمعتم كيف يقبل القاضي أن يُهان في غفلة من غفلات الزمان؟».

ويروي الرواة أن الشيخ سعيداً كان ينظر، يوماً، في دعوى شجار بين شابين جاهلين، وطلب من أحد الشهود، وهو شيخ جليل من أجاويد الدروز ان يدلي بمعلوماته، فقال: «هذا الشاب قال لهذا الشاب كلمة بذيئة جداً، فردّ هذا عليه بطعنة خنجر».

فسأله القاضي: «وما هي هذه الكلمة البذيئة جداً التي استوجبت طعنة خنجر؟»

قال الشيخ: «صدقني إنها كلمة سفيهة ونابية يأباها الذوق،

القاضي الشيخ سعيد زين الدين

وأنا كما تراني لا أقدر أن أُلوّث لساني بها. . وهي كذلك ثقيلة جداً على مسامع المستمع».

وألحّ القاضي على استماع الكلمة، مهما كانت نابية وثقيلة، وذلك استكمالاً للتحقيق.

وتردد الشيخ كثيراً، حفظاً على نظافة لسانه، ولا سيما أن القاضي كان درزياً مثله وابن عائلة كريمة. فهدده القاضي بالسجن إن لم يقل الكلمة كما بدرت من الشاب.

فحمي غضب الشيخ لأن القاضي أرغمه على ترديد كلام غير لائق، ووجه نظره إلى القاضي، قائلاً عن لسان الشاب الجاهل «يا ابن الـ . . .»، ولفظ الكلمة كما لفظها الشاب.

فانتهره القاضي قائلاً: «قُلْ «البعيد» »!

أجاب الشيخ: «هو ما قال «البعيد» ».

«والبعيد» هي كلمة استدراكية يستعملها المتكلم. إذا تلفظ بكلمة نابية موجهة أصلاً إلى الغائب - أي البعيد - بصفة المخاطب، حتى لا يظن المخاطب أن الكلمة النابية موجهة إليه، وذلك من باب اللياقة.

الطبّ الوقائي والشعر الشفائي

اشتهر أبناء جبل عامل بالشعر وبرعوا فيه، ويقول الأمير شكيب ارسلان: «لم أجد أصدق من قريض أبناء جبل عامل ولا أخلص منه عرقاً. . .»

ويقول الشاعر بولس سلامة إن أبناء جبل عامل هم شعراء بالسليقة.

ويُحكى أن شاعراً وقف أمام بائع خيار في سوق النبطية وسأله شعراً:

بِكَمِ الخيارُ؟ لشاعرٍ متزهّدِ

أجاب البائع شعراً: بالحمد! خُذْ ما تشتهي يا سيّدي

وكان الدكتور علي بدر الدين أحد أشهر أطباء النبطية شاعراً يأخذ ويعطي مع مرضاه بالشعر. ويقول فيه الشاعر محمد علي الحوماني:

وقد وجدتُ طبيباً بالشعر يشفي المريضا
وإن شفاه تقاضى من المريض قريضا

وتُعتبر مدينة النبطية قاعدة جبل عامل الأدبية ـ قبل أن تصير قاعدته الإدارية ـ وموئل شعرائه ومفكريه.

وحدث أن انتشر وباء الديزنتاريا في بعض قرى جبل عامل. ولا سيما القرى التي كانت ما زالت تشرب من مياه البرك الراكدة، ولذلك دعي الدكتور بهجت ميرزا صاحب المستشفى المعروف باسمه في النبطية. إلى لقاء عام يلقي فيه حديثاً عن «الطبّ الوقائي»، في مدرسة المدينة. حيث تكلم أولاً مدير المدرسة الأستاذ عبد اللطيف فياض عن غاية اللقاء وطلب من الشاعر السيد جعفر الأمين ان يفتتح اللقاء بأبيات عن فضل الطب عند العرب.

وتقدم الشاعر السيد الأمين[1] ومعه قصيدة تربو على الخمسين بيتاً، بقي منها في أذهان الذين سمعوها بضعة أبيات متلاحقة وغير متلاحقة، قال:

سَلوا التاريخ عن طبِّ ابن سينا ... وأجدادٍ سمَوا علماً ودينا

(١) مارس السيد جعفر الأمين مهنة التدريس ونظم الشعر الساخر. ومنه قوله:

أمّا أنا فلقد غدوتُ معلماً ... بقيادتي جيشٌ من الصبيانِ
الحال أحسنُ. إنما أخشى على ... عقلي من التخريب والنقصان
وأخاف من بعد «التأستذِ» في غدٍ ... ان أغدُ تلميذاً بمارستانِ
لكنني راضٍ لأن خسارتي ... في خدمة الأهلين والأوطانِ
فغداً سأتحفهم وأرفع شأنهم ... بالراعي والزبال والطحانِ

نظافتنا من الإيمان، كنّا ... نمارسها.. وكنّا مؤمنينا
وبيت الداء في الأمعاء، لكنْ ... إذا صمنا نصحُّ، كما هدينا
وإن البرد يعقبه زكامٌ ... ولكنْ إن تدفأنا شفينا
وإن الكيَّ آخرُ كل طبّ ... خبرناه فكنّا أوّلينا
«ولبسُ عباءَة وتقرُّ عيني» ... وبعض الشاي نشربه سخينا

إلى أن قال:

وقد عمّ البلاء إلا طبيبٌ ... يداوي الضعف والمستضعفينا
يداوي الجهل إن الجهل غطى ... على أبصارنا حتى عمينا

وطفق الحاضرون ـ لعل رنين القوافي أنساهم مناسبة اللقاء ـ يسابقون الشاعر في معرفة القوافي، بسبب سلاستها وحسن ملاءمتها.

ثم أخذوا يقترحون على الشاعر مواضيع جديدة، بعد كلمة «يداوي».. مثلاً «يداوي الإستغلال..! يداوي التدجيل..! يداوي الغلاء..!» وهكذا دواليك.

وكان الشاعر يكبو حينا وينجح أحياناً في إيجاد قفلة وقافية لكل موضوع، إلى إن قال أحد الحاضرين: «يداوي الجوع..!»

فأجابه الشاعر بداهةً:

يداوي الجوعَ «بسالبسكوت»، حتماً
إذا تجّارنا احتكروا الطحينا

وقال آخر: «يداوي المغص..!»

لكن السيد الأمين بقي سيد الموقف إلى النهاية، فقال:

يـداوي الـمغـصَ بـالـملفـوف نـيئـاً
وَكُـلْ فـجـلاً، وكُـلْ «لحـمبـعجـينـا»

وضجت القاعة بالتصفيق وطلب الإعادة والاستزادة، حين فرغ صبر مدير المدرسة الذي وقف وأهاب بالحاضرين أن يفسحوا في المجال للطبيب المحاضر، ليتكلم في موضوع الطب الوقائي.

فوقف الدكتور ميرزا وقال: «لا حاجة إلى الطب الوقائي في حضور الشعر الشفائي».

ولملم الطبيب أوراقه وانصرف.

مَدام كُوري
التي نزعَت الدّبس عَن الطحِينة

انقطعتُ قرب دار الصياد في الحازمية، ووقفت إلى جانب الطريق أنتظر رحمة الله وسيارة تنقلني كيفما كان وإلى أينما كان، وكان الله رحيماً، فتوقفتْ أمامي سيارة فيها خمسة ركاب على وجوههم سمات أهل البقاع الغربي وسّعوا لي مكاناً، فتجمّعت وانطويت بينهم «كيفما كان».

ودونما أي اهتمام أو اعتبار لدخولي، كان السائق يتابع حديثاً ربّما بدأه قبل نصف ساعة، ويتابع، في نفس الوقت، الالتفات إلى الوراء، ليتحسس تأثير كلامه في وجوه ركاب سيارته، قال:

«... وكان عمي يحاول تذنيب زوجته لكي يجد مبرراً لطلاقها، لذلك صرخ في وجهها: «مَن طلب منك، يا قليلة العقل، أن تخلطي الدبس بالطحينة؟ أنا لا أحب الطحينة مع الدبس، عليكِ أن تنزعي الدبس عن الطحينة، وإلّا...».

وخرج عمي إلى عمله، وحينما رجع في المساء وجد الدبس بدون طحينة، فسأل زوجته كيف نزعت الدبس عن

الطحينة. قالت إنها أضافت ماءً على الدبس والطحينة، ووضعت الخليط على النار، ولما كانت الطحينة أخفّ من الدبس، لذلك طاشت الطحينة على وجه الدبس، فنزعته امرأة عمي وتركت الدبس والماء على النار حتى تبخّر الماء وبقي الدبس في الطنجرة.. هكذا نزعت امرأة عمي الدبس عن الطحينة. وأنقذت نفسها من غضب زوجها».

فتناول حبل الكلام راكب يتقدمه شاربان عدوانيّان كأنّهما يشقّان الطريق أمامه، وقال مخطاباً السائق: «لعل إبليس اللعين مرّ في قريتكم وباع امرأة عمك شيئاً من بضاعته».

فتساءل سائر الركاب: «وكيف كان ذلك؟»

فأزاح الرجل شاربيه من أمامه وقال:

- يُحكى أن إبليس، لعنة الله عليه، كان يسوق أربعة حمير عليها أحمال، فمرّ به «الخضر» عليه السلام، وسأله عنها. فقال إنه يحمل تجارة ويطلب مشترين. فسأله الخضر عمّا يحمل الحمار الأول قال: الاستبداد. فسأله عمّن يشتري الاستبداد، قال: الملوك.. وسأله عمّا يحمل الحمار الثاني، قال: الحسد، فسأله عمّن يشتري الحسد، قال: العلماء.. وسأله عمّا يحمل الحمار الثالث قال: الغشّ، فسأله عمّن يشتري الغشّ، قال: التجار.. وسأله عمّا يحمل الحمار الرابع، قال: الكيد، فسأله عمّن يشتري الكيد، قال: النساء!»

فتنحنح راكب آخر يتكلم من سقف حلقه وقال: «صدق من قال إن كيد النسوان غلب كيد الشيطان».

وتلعثم الرجل قليلاً وهو يحاول أن يتكلم ليثبت مقولته أن كيد النسوان غلب كيد الشيطان، فقوطب عليه راكب آخر بكلام أنيق كأنه قراءة في كتاب، قال: «كيد النسوان غلب كيد الشيطان، هذا صحيح، لكن كيد النسوان انهزم أمام حكمة سيدنا سليمان».

كنت أتمنى أن يتاح للناطق من سقف حلقه أن يتكلم، لأعلم منه كيف غلب كيد النسوان، كيد الشيطان، لكن المبادرة كانت لراكب آخر قال: «وكيف كان ذلك؟»

قال الرجل المتأنق: «كان سيدنا سليمان عليه السلام، نبيّاً بين الملوك، وملكاً بين الأنبياء، لأن الله تعالى اختصّه دون سواه بالحكمة والدهاء وشبع النفس لردّ كيد النساء. وسمعتْ بلقيس ملكة سبأ[1] أخباره وأرادت أن تختبر سرّ عظمته. قالت: «أُرسل إليه هدية، فإن كان ملكاً ارتضاها، وإن كان نبيّاً أباها.. فأباها...»

(١) في خرافات الأدب العربي أخبار عن جنيّة اسمها «رواحة بنت مسكن» كانت أجمل وأشهر جنيات العصور القديمة. قيل إن ملك سبأ (اليمن) تزوجها وأنجب منها ابنة هي بلقيس أجمل نساء زمانها والتي كان لها سلطان على بعض ملوك الجان.

فقال صاحب الشاربين العدوانيين: «لا لا يا أبو رشيد، بلقيس كانت امرأة، وكل امرأة هي امرأة، ولو كانت ملكة. وبلقيس ما جاءت إلى سليمان، إلا وفي نفسها ما في نفس كل امرأة مع رجل، وكم بالحري إذا كان الرجل هو سليمان أعظم رجل في ذلك الزمان».

فتدخل راكب رابع كانت عباراته تتفركش بوجبة أسنانه المستعارة، قال: «بالإذن من الأخ أبي رشيد، بلقيس جاءت إلى سليمان لغاية «معقولة ومقبولة»، وهي تحسين النسل في بلادها، لذلك دخلت «فارغة» وخرجت معبّأة».

وتحلفص الراكب الخامس الذي كان حتى ذلك الوقت لا ينفكّ يحاول طرد ذبابة لا تنفكّ «تتجالط» متنقّلة بين شفتيه وعينيه، وقال: «على كل حال، الكتاب يقول إن بلقيس جاءت بحال ورجعت بأفضل حال، كانت من قوم كافرين، فصارت من المهتدين، وعفا الله عما مضى».

حتى آنئذٍ، كان المتكلم من سقف حلقه ما برح يتنحنح محاولاً شق طريقه إلى الكلام عن كيد النسوان الذي غلب كيد الشيطان، لكن النقاش كان قد احتدم بين الركاب حول مهمة بلقيس عند سليمان. واحد يقول إن بلقيس جاءت تمتحن عظمة سليمان. والثاني يزعم أنها جاءت إليه كامرأة تسعى وراء رجل، لا كملكة.. وفهمكم كفاية.. والثالث يحكم أنها جاءت لتحسين نسلها، والغاية تبرّر الواسطة.. والرابع دقر

عقله عند تحصيل الحاصل، وهو أنها آمنت واهتدت، فشرّفها سليمان وأنالها مبتغاها...

واكتشفتُ ساعتئذٍ أنني كنت أغشم ركاب السيارة جميعاً، ولا رأي لي أشقّ به رجلي حول بلقيس، فتهيّبتُ.

وكم كنت أود معرفة حقيقة أمر هذه المرأة العظيمة التي خرجت من التاريخ وصارت نهباً على ألسنة الناس - حتى ولو كانوا خمسة في سيارة - لو لم نكن بلغنا آنئذٍ، أحد مرائب شرق ساحة الشهداء، فترجل الرجال الخمسة، ووقفوا: الواحد إزاء الآخر، يتابعون نقاشهم تحت المطر، ولا أخالهم اتفقوا.. فيما تابع السائق سيره بي، بناءً على طلبي، ليوصلني إلى بيتي، وسألني أين أسكن.

قلت: «بين بيت جورجينا رزق وقصر شفيقة دياب في شارع مدام كوري».

قال: «كان الله في عونك! لأنك تستطيع أن تعيش بين ثلاث نساء من هذا العيار الثقيل!»

ثم استطرد السائق وقال: «جورجينا رزق[1] على الرأس والعين، وشفيقة دياب[2] أنعم وأكرم. ولكن مَن هي مدام

---

(١) جورجينا رزق ملكة جمال الكون سابقاً.

(٢) شفيقة دياب سيدة نبيلة ويعتبر قصرها من بيوتات بيروت العريقة.

كوري[٣] التي سمّيتم شارعكم باسمها؟».

قلت: «هي أوّل امرأة نزعت الدبس عن الطحينة.. وصارت أشهر امرأة في العام».

الملل آفة العمل

يُعتبر الدكتور فؤاد سامي حداد من علماء الطب في لبنان. وبحكم مجاورتي له لاحظت أنه يخرج من بيته في السادسة صباحاً، ولا يعود إليه قبل السابعة مساءً. سألته عن قناعته في مهنته، قال إنه يعتنق في حياته العملية مثلاً فرنسياً معناه:

«من يعمل بلا ملل، يجد نهاره قصيراً وعمره طويلاً».

وتقول حكمة عربية قديمة:
الملل آفة العمل.

(٣) ماري كوري مكتشفة الراديوم، في فرنسا. نالت جائزة نوبل مرّتين في ١٩٠٣ و١٩١١

الباب الرابع:

من راقب الناس.. زاد فهمًا

"الدّيكُ الفَصيح مِن دَاخِل البَيضة يَصيح"

كان حنّا خبّاز عالماً ومفكّراً أكمل دراسته في مدرسة الفنون التابعة للإرسالية الأميركية، في صيدا سنة ١٨٩١. زرته يوماً، في إحدى مراحل شيخوخته، فتذكّر أن والدي المعلم يواكيم الراسي كان مدير المدرسة المذكورة في أيام دراسته فيها. وراح يسترجع ذكريات ذلك الزمان، قال:

ـ «كان التعليم الديني إلزامياً، وكان المرسلون الأميركيّون لا يفتأون يتردّدون على المدرسة ويمتحنون كلّ تلميذ بمفرده عن مدى معرفته أخبار الكتاب المقدّس، كقولهم مثلاً: «ماذا خلق الله في اليوم الرابع» و «كم سنة عاش أخنوخ» و «كم كان عمر ساره عندما حبلت بابنها اسحق». وهكذا دواليك.

وكنا نحن التلامذة، إذا تعسّرت الأمور علينا، نحيلها على الله، فإذا سُئلنا مثلاً: «كيف ينزل المطر» أو «كيف يحدث البرق والرعد»، نجيب: «بإرادة الله!» وكان مثل هذا الجواب مقبولاً عند المرسلين الأميركيين.

وقدم العلاّمة الشيخ يوسف الأسير، الصيداوي الأصل، في ذات صباح، يزور المدرسة. وراح يطرح سؤالاً واحداً على كلّ تلميذ بمفرده. قال: «خمسة مع خمسة هي، في الصباح، عشرة. فكم تكون خمسة مع خمسة في المساء؟».

فأجاب أكثر التلامذة جواباً واحداً هو: «خمسة مع خمسة هي عشرة في الصباح.. وهي عشرة في المساء، على حدٍّ سواء، ما عدا تلميذين أجابا إجابتين مختلفتين: التلميذ الأوّل هو سليمـان متري من راشيّا الفخار، قال: «خمسة مع خمسة، هي في الصباح، عشرة. وهي في المساء كما يريد الله». والتلميذ الآخر هو فارس الخوري من الكفير الـذي قال: «خمسة مع خمسة، في هذا الصباح، هي عشرة.. فإذا كنت تريد مني أن أعرف كم ستكون في المساء، أرجو أن تمهلني حتى المساء، لأجمعها ثانية وأعطيك النتيجة عمّا ستكون عليه في المساء».

فقال الشيخ يوسف الأسير: «هذا التلميذ، أي سليمان متري، سيصير رجل دين. وهذا التلميذ، أي فارس الخوري، سيصير رجل سياسة».

وصدق ظنّ، الشيخ الأسير. فصار سليمان متري رجل دين محترماً، وفارس الخوري زعيماً سياسياً مميّزاً.



تلامذة مدرسة الفنون الأميركية في صيدا سنة ١٨٨٩ عُرف منهم:
١ ـ حنا خباز ٢ ـ سامي الراسي ٣ ـ طعمه أبو سمرا ٤ ـ سليمان متري ٥ ـ فارس الخوري.

الرّجال تُشرّف ألقابها

ومن مرويّات خليل بك الخوري أن أخاه فارساً الذي اكتسب لقب «بك» في ما بعد، توجّه إلى الآستانة فور انتخابه نائباً عن مدينة دمشق سنة ١٩١٤، ودخل مع بعض زملائه، مكتب مجلس المبعوثان (المجلس النيابي العثماني) وعرّف عن نفسه قائلاً: «فارس الخوري، نائب مدينة دمشق».

فاستنتج رئيس المجلس من كلمة «الخوري» أن فارساً هو رجل مسيحي، وقال بصوت مرتفع: «الخواجا فارس الخوري نائب مدينة دمشق.» على اعتبار أن المسيحي، أياً كان، هو خواجاً، ولا شيء آخر.

وحاول أحد زملاء فارس الخوري لفت نظر مَن يلزم إلى أن فارساً هو «بك» لا «خواجا»، فقال فارس بك: «ومتى كانت الألقاب تشرّف أصحابها، أكثر ممّا يشرّف الرجال القابهم!»

هكذا كان «الخواجا» لقب الرجل المسيحي، حتى ولو صار نائباً عن مدينة دمشق في الآستانة. ورحم الله مارون عبود الذي قال:

«فالأفندي» مسلمٌ في شرعنا والمسيحيُّ «خواجا»، فاعجبِ

مصالحة الكِلاب، وتخزيق الثيَاب

اشتهرت قرية الكفير، في جنوب لبنان، بمَن أنجبت من رجال فكر وسياسة، لعلّ أشهرهم كان فارس بك الخوري أحد ألمع رجال السياسة في سوريا طوال خمسين سنة.

كما اشتهرت قرية الكفير، كذلك، بنخبة من مغتربيها حقّقوا شهرة واسعة في أميركا، وهذا ما حدا بشاب كان يتعاطى مهنة الحلاقة في الكفير، إلى الالتحاق بمَن سبقوه إلى أميركا، حيث فتح صالوناً للحلاقة.. ولبث ينتظر الثراء العاجل بدون جدوى.

أخيراً، تبرّع له أحد الأصدقاء بنصيحة قال: «الكلاب في هذه البلاد هم أثمن من الأولاد، وعليك أن تترك حلاقة الرجال وتتعاطى حلاقة وتزيين الكلاب، فتتدفّق عليك الأموال وتغدو في أحسن حال».

وأسرع الرجل وأحضر صورة كلب كبير علّقها على باب الصالون وكتب:

«أحدث الأزياء لتزيين الكلاب!».

فتهافتت عليه النساء بكلابهنّ المدلّلة. لكن الذي كان يحدث أن تتعارش الكلاب داخل الصالون فتبعثر محتوياته وتقلب طاولاته وتحطّم مراياه.. ولا يسلم الرجل من عضّة في ساقه ونهشة في كمّه ونتشة في قفاه، فيضمّد جراحه ويصبر على بلواه، لأنه كان يحسب بالليرات ويقبض بالدولارات و«الدراهم مراهم» كما يقول المثل اللبناني.

وحدث أن حضر فارس بك الخوري إلى أميركا لتمثيل سوريا في هيئة الأمم، وتوافد مواطنوه من قرية الكفير للسلام والإكرام، وكان فارس بك يتلطّف بسؤال كلّ واحد منهم عن أحواله.

قيل، حضر أخونا حلّاق الكلاب، أخيراً، فسأله فارس بك عن أحواله، قال: «أحوالي المادّية على أحسن ما يرام. لكنني والحق يقال، لا أهنأ براحة بال ولا أشعر باحترام في مجالس الرجال.. فقد كنت أتعاطى مهنة الحلاقة في قريتنا الكفير - مثل الناس ولا باس - ثم جئت إلى هذه البلاد طلباً للرزق. وتعاطيت حلاقة وتزيين الكلاب، وأصبت نجاحاً ممسوساً.. لكن الذي يحدث غالباً، أن تتعارش الكلاب وتتهارش داخل الصالون، ولا تلبث صاحباتها أن تتدافش، كل واحدة منهنَّ تحاول أن تنتصر لكلبها.. ولا ألبث أن أتدخّل للفصل بينهنَّ.. فيستفردني أحد الكلاب، ظنّاً منه أني أحاول الاعتداء على صاحبته.. وناهيك عمّا ينتج من مصالحة الكلاب وتخزيق الثياب...

فقاطعه فارس بك قائلاً: «كم كان أشرف لك، يا ابن خالتي، أن تبقى في بلادنا كريماً بين الأهل والأصحاب من أن تصير هنا قاضياً.. للكلاب!».

المَال وَالشّهـرَة

كان اميل البستاني دائب الحركة والنشاط وبالرغم من مشاغله ومسؤولياته المتشعبة كان يترك للفكر والأدب مجالاً رحباً من اهتماماته. فسألناه يوماً عما يُشغل باله بعدما أصبح من كبار رجال الأعمال ومن نجوم السياسة في العالم العربي، فأجاب بأبيات ربما كانت للشاعر ايليا أبو ماضي، قال:

مالي وقد أصبحتُ عبداً لما
أجنيه من مالٍ، ومن شهرةِ
كنحلةٍ أمسكها شهدُها
من الجناحينِ، فلم تفلتِ

الجَاحِظ في لندُن يَمشي ولَا يتعَب

كنت، وما برحت أعاني أوجاعاً مزمنة في مفاصلي، وتعباً عاماً في عضلاتي، ورحت أطرح مصيبتي على الدكتور وايتز في لندن، قلت: «مرض الجاحظ، وهو مفكر عربي قديم، وسألوه عما به، قال:

«كنت أمشي ولا أتعب، صرت اتعب ولا أمشي».

وأضفت قائلاً: «وأنا الآن كذلك».

قال الدكتور وايتز: «كنت إذن تمشي ولا تتعب وصرت تتعب بدون أن تمشي. هذا هو مرض الروماتزم، أحد الأمراض المستعصية، وكان الكاتب الذائع الشهرة برناردشو يعاني منه ويقول:

«الروماتزم علة لئيمة ملازمة مدى الحياة مثل الزوجة البشعة. لكن تعوّد على معايشتها كخفّ نصف مصيبتك!»

ونهضت لأنصرف، لأن «خير الكلام ما قلّ ودلّ»، فاستوقفني الطبيب وقال: «هذه أقصر وأيسر معاينة ومعالجة

عرفتها منذ ثلاثين سنة. ولكن من تراه يكون الجاحظ هذا الذي اختصر علته بسبع كلمات لا غير!»

قلت: «عندنا مثل نستعمله في كلامنا عن رجل مات في سبيل العلم، فنقول: «الجاحظ قتلته كتبه»، والجاحظ كاتب وعالم عربي، مات كسيحاً منذ ألف سنة تقريباً، تاركاً وراءه عشرات الكتب الثمينة. قيل إنه طلب من ذويه أن يُضجعوه قرب مكتبته، لكونه كسيحاً، ليتناول منها، ساعة يشاء، ما يفرج كربه. فانهارت عليه كتبه وقتلته، فقيل: «الجاحظ قتلته كتبه».

قال الطبيب: «أنا الآن في صدد تأليف كتاب في علم الروماتزم، وسيقترن فيه اسم الجاحظ باسم جورج برناردشو في باب خاص موضوعه «المختصر المفيد في علاج الحالات المستعصية».

"باريز مربط خيلنا"

بعد إبرام اتفاقية الطائف خريف **١٩٨٩**، توجه عدد وافر من النواب اللبنانيين إلى باريس واعتصموا فيها. وجاء أحد اللبنانيين المقيمين فيها يسأل أحد النواب: «ولماذا تعتصمون في باريس، لا في سواها من عواصم العالم؟»

أجاب النائب: «. . . أليست باريز (باريس) مربط خيلنا؟»

مُنيت فرنسا بالهزيمة عام **١٩٤٠** وانكسرت شوكة حكامها في بلادهم. وتوهم اللبنانيون أن الهزيمة لا بد أن تكون ليّنت عريكة الحكام الفرنسيين في بلادنا، لكن هؤلاء ما لبثوا أن أقدموا على اعتقال رئيس جمهورية لبنان الشيخ بشارة الخوري ورئيس حكومته رياض الصلح ورفاقهما، وحاولوا إحكام سيطرتهم، بالقوة، على مقدرات لبنان.

فاتصل ميشال شيحا نسيب الشيخ بشارة، بالقيادة العسكرية الفرنسية، يسأل عن أسباب وظروف اعتقال رئيس الجمهورية ورفاقه، فكان الجواب: «. . . وحتى لا يتوهم اللبنانيون أن باريس صارت مربط خيلهم».

وبعد أكثر من عقدين من الزمن طلب الشاعر اللبناني الأصل جورج شحاده من رئيس الندوة اللبنانية ميشال اسمر، أن يفيده عَمَّن قال «باريز مربط خيلنا»، ومتى وأين وفي أيه ظروف.

وقيل إن جورج شحاده كان يريد أن يؤلف ملحمة لبنانيه تاريخية موضوعها «باريز مربط خيلنا».

* * *

كان ذلك في أواسط الثلاثينات حين كلفني رياض الصلح، مع شاب اسمه كمال الخطيب، نقل رسالة، قال إنها كانت على جانب من الأهمية، إلى عبد اللطيف بك الأسعد، أحد زعماء جنوب لبنان في ذلك الزمان.

وما لبثت أن علمت أن رياض الصلح الذي كان دائم التحفزّ إلى مكافحة الانتداب الفرنسي، إنما أراد في كتابه هذا تحريض عبد اللطيف الأسعد على ترشيح نفسه للنيابة، وإلى النهاية - عن المقعد النيابي الشاغر في لبنان الجنوبي، بوفاة النائب فضل الفضل، - ضد بهيج الفضل مرشح الانتداب الفرنسي، المدعوم شخصياً من المستشار الفرنسي في الجنوب الكومندان باتشكوف، الذي كان مغرقاً في استبداده، يتدخل في كل شاردة وواردة، ولا سيما في الانتخابات النيابية، فيرفع مَن يشاء ويُقصي مَن يشاء، بدون أي تقدير للاعتبارات الوطنية والطائفية.

ربما لم يكن عبد اللطيف الأسعد في حاجة إلى تحريض على خوض معركة انتخابية، وهو زعيم وسليل كرامات موروثة. لكن ما لا شك فيه أن رياض الصلح كان هو نفسه في حاجة إلى مناسبة تُرفع فيها شعارات وطنية في جنوب لبنان، حتى ولو كانت المناسبة معركة انتخابية محسومة سلفاً لمصلحة الانتداب الفرنسي.

وما أن أعلن عبد اللطيف ترشيحه حتى التفّت حوله جمهرة من شبّان ذلك الزمان المتأثرين بتوجيهات رياض الصلح، وحولوا معركة عبد اللطيف الانتخابية إلى معركة جهاد وطني.

في ذلك الزمان، كانت بلدة بنت جبيل، في أقصى الجنوب، قطب الحركة الوطنية، لذلك وقع الاختيار عليها لتكون منطلقاً لجولات انتخابية متلاحقة، يكون ظاهرها الدعاية لعبد اللطيف، وباطنها تحدي إرادة الانتداب الفرنسي المتمثل بالمستشار باتشكوف.

وفي موكب بلغ عدة آلاف من الرجال تقدمه رجل اسمه علي هيدوس وراح يهتف بلحن الحداء الشعبي:

باشكوف خبّر دولتك   سلطاننا عبد اللطيف
باريز مربط خيلنا   ورصاصنا قلّط جنيف

وراحت الجماهير تردد وراء علي هيدوس «باريز مربط خيلنا»، وذلك على مسامع العملاء والجواسيس المندسين بين

الجماهير، وتتحدى المستشار الواسع الاقتدار بقولها «باتشكوف خبر دولتك!». . «سلطاننا عبد اللطيف»، وفوق كل ذلك تجاوز رصاص أبناء الجنوب، في ذلك النهار، مديه جنيف التي كانت مقراً لعصبة الأمم في ذلك الزمان.

وسقط عبد اللطيف الأسعد انتخابياً، بعد ما نودي به سلطاناً، فارتفع شعبياً، وصار أحد رموز الوطنية في لبنان. ولم يطل الوقت حتى مات كما يموت الشهداء الأبطال. وعاشت ردة علي هيدوس، وتغلغلت في قلوب أبناء الجنوب وترسخت في ذاكرتهم الشعبية، حتى صاروا يرددونها في كل مناسبة. ولم تلبث أن دخلت في تاريخنا الوطني.

وهكذا صار من حق نوابنا المعتصمين في باريس أن يترحموا على علي هيدوس، وأن يقولوا بلسانه:

«باريز مربط خيلنا!».

"ني" أبوجمرا، "ني" أبوسمرا

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر، أذكر أن المستشار الفرنسي الكومندان باتشكوف، الذي تسلّط على لبنان الجنوبي، في الثلاثينات، كان مبتور اليد اليمنى، معقد الشخصية، وهو ابن غير شرعي للكاتب الروسي مكسيم غوركي من أم فرنسية، غير أنه كان فرنسياً أكثر من الفرنسيين ويمينياً أكثر من أي يميني. وقد ترك لنا، قبل رحيله عنا، عبارتين مأثورتين نتذكرهما في مناسباتهما، فنذكره بالخير، وهما: «باريز مربط خيلنا المار ذكرها».

و «ني» أبو جمرا، «ني» أبو سمرا.

وكلمة «ني» الفرنسية معناها «لا»، أي، لا أبو جمرا ولا أبو سمرا.

* * *

في ذلك الزمان تأججت الحركات الوطنية في الجنوب، ضد الانتداب الفرنسي، في شخص الكومندان باتشكوف، بتوجيه من رياض الصلح، وهو ابن الجنوب، وبمكاتفة عدد

من شبان ذلك الزمان مثل عادل عسيران وموسى الزين شراره وعلي بزي ومعروف سعد وعبد الحسين عبد الله، وآخرين كانوا جميعاً من المسلمين، بالإضافة إلى سليم أبو جمرا والفرد أبو سمرا من طائفة الروم الأرثوذكس. كان الأول مراسلاً صحفياً في مدينة صور، والثاني صاحب جريدة القلم الصريح في مرجعيون.

وكان الكومندان باتشكوف يقول في مجالسه: «نحن الفرنسيين جئنا إلى هذه البلاد لحماية المسيحيين ورفع شأنهم، وأنا أفهم لماذا يحقد علينا بعض غلاة المسلمين، لكنني لا أفهم لماذا يكيد علينا هذان الشابان المسيحيان أبو جمرا وأبو سمرا.

وفي إحدى المناسبات الوطنية دعا عادل عسيران إلى مظاهرة في مدينة صيدا، ضد الانتداب الفرنسي كان سليم أبو جمرا من جملة المشتركين فيها. فأمر باتشكوف باعتقال عادل عسيران وسليم أبو جمرا، دون سواهما من المشتركين في المظاهرة. ثم ما لبث باتشكوف أن أمر بالإفراج عن عادل عسيران، واستبقى سليم أبو جمرا في السجن.

وجاء المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي مطران الروم الأرثوذكس في الجنوب يطالب باتشكوف بالإفراج عن سليم أبو جمرا، ما دام أفرج عن عادل عسيران قائد المظاهرة، فعاجله باتشكوف بنزق شديد قال: «ني أبو جمرا، ني أبو سمرا!».

أي لا إفراج عن سليم أبو جمرا، ولا عن الفرد أبو سمرا.

قال المطران: «ولكنني جئت الآن أطالب بالإفراج عن سليم أبو جمرا، لا عن الفرد أبو سمرا الذي لم يشترك بالمظاهرة، وهو ليس في السجن الآن».

فصاح باتشكوف: «وكيف يجوز أن يبقى أبو سمرا خارج السجن حتى الآن!»

وبدلاً من الإفراج عن سليم أبو جمرا، أمر باتشكوف باعتقال الفرد أبو سمرا.. فتأيدت العدالة.

"مَن سَرق السّارِق نَـالَ رضى الخَالِق"

أُنشئت «مصلحة الميرة» في لبنان سنة **١٩٣٩** وأعطيت صلاحية شراء القمح من المزارعين، بسعر رسمي مقطوع، وحصر توزيعه على المواطنين لتفادي المجاعة، بسبب الحرب.

في ذلك الوقت أُتهم رجل من قرية «بليدا» في جنوب لبنان، بسرقة كيس قمح من مصلحة الميرة، وقُدّم إلى المحاكمة أمام القاضي المنفرد في مرجعيون الأستاذ مصطفى الشماع، الذي سأل المتهم عن صحة التهمة المنسوبة إليه.

قال الرجل: «نعم!»
قال القاضي: «ألا تخجل من عملك هذا؟»
قال الرجل: «لا، لأن مأموري مصلحة الميرة لا يخجلون من سرقتنا. فهم يتواطأون مع كبر المزارعين والاقطاعيين ويتركون لهم غلالهم، ليبيعها هؤلاء بأسعار مرتفعة في السوق السوداء. في حين يستبد مأمورو الميرة بنا نحن صغار المزارعين، ويستولون على غلالنا. ولا يتركون لنا ما يكفي

لقوت عيلنا، فنضطر إلى شراء مونتنا من كبار المزارعين والإقطاعيين بأسعار مرتفعة.

ولذلك - قال الرجل - برّرت لنفسي الاستيلاء على كيس قمح مما استولى عليه مأمورو الميرة، عملاً بالمثل القائل: «من سرق السارق نال رضى الخالق!»

وكان القاضي مصطفى الشماع شجاعاً، فاستوحى رضى الخالق.

ووهب بيته وأرضه إلى مدرسة الفنون الأميركية، التي تولى رئاستها حقبة من الزمن.

وحدث سنة ١٩٢٨ أن رجلاً من صيدا اسمه وهبي النعماني كان يتعاطى أعمال الدهان ويتردد على قريتنا إبل السقي (التي كنا نعيش فيها بعد وفاة والدي) فأعطته والدتي نقوداً ثمن دهان ليشتريه من صيدا ويرجع ويدهن لنا أبوابنا وشبابيكنا في إبل السقي، فمضى ولم يرجع. فقالت لي والدتي: «أنت صرت شاباً (كنت في السابعة عشرة) وعليك أن تحصل حقوقك من الناس، إذهب إلى صيدا حيث لنا أصدقاء واطلب مساعدتهم، مثل مصطفى ومحمد الددا والمعلم مخايل البستاني. والحاج محي الدين الجوهري إذا لزم الأمر».

وذهبت إلى صيدا وقصدت بيت الددا، وهم تجار أخشاب وأصحاب محلات نجارة، فاستقبلني رجل جليل بالترحاب وقال إن والدي، رحمه الله، كان صديقه، ثم سألني عن اسمي. قلت: «اسمي سلام». قال: «قل لوالدتك إن اسمك هو «عبد السلام» لا سلام. فسلام هو من اسماء الله الحسنى، ولا يجوز أن يسمّى العبد باسم ربّه. فليكن اسمك إذاً عبد السلام!»

ولاحظتُ ان مستخدمي المحل كانوا يخاطبون الرجل بقولهم له: «يا حاج» فتصرّفت بصفتي عبد السلام، وعرضت على الحاج قضيتي مع وهبي النعماني. فأمر الحاج أحد

مستخدميه أن يذهب ويبحث عن الرجل في كل مكان ويأتيه به في الحال.

وبقيت انتظر حتى المساء حينما حضر وهبي وسلمّ واعتذر من الحاج ومنّي، وقال إن زوجته - أو والدته - كانت مريضة جداً، وإنه اشترى الدهان وسيكون في ابل السقي في الأسبوع القادم.

فشكرت الحاج وقلت له إنني أرغب في زيارة بيت المعلم مخايل البستاني. لأبيت ليلتي عندهم. فقال الحاج بلهجة الأمر: «اذهب يا وهبي مع عبد السلام، وأوصله إلى بيت البستاني، وسلّمه إليهم يداً بيد».

قال وهبي: «ولكن، يا حاج - أنت تعلم أن المحلة «مسكونة»، والدنيا مساء. ومَن يضمن سلامة عبد السلام وسلامتي، إذا عبرنا بين الجماعة؟».

أجاب الحاج متهكماً: «أنا أضمن سلامة عبد السلام، وعبد السلام يضمن سلامتك».

ومشى وهبي أمامي، ومشيت وراءه حتى كدنا نخرج من صيدا شرقاً، فقلت: «ذكرت يا معلم وهبي أن المحلة «مسكونة»، وها نحن نمرّ في محلة لا أبنية فيها، فكيف تكون المحلة مسكونة، وما هو الخطر في كونها مسكونة؟».

قال: «مسكونة»، يعني أن «الجماعة» تسكن فيها!».

قلت: «وأي جماعة تعني؟».

فقال متلعثماً: «الجماعة، الجماعة، استغفر الله! الجماعة هم جماعة الجن الذين يسكنون في مغاور «طبلون» المجاورة، والذين يخرجون إذا خيّم الظلام، ويروّعون الناس. لذلك تخلو المحلة من العابرين بعد غياب الشمس».

قلت: «وماذا تفعل «الجماعة» للناس، حتى يخشى الناس شرّ الجماعة؟».

قال وهبي بكل رصانة: «حدث مؤخراً أن رجلاً من أبناء المحلة مرّ هنا ليلاً، ورأى امرأة من الجماعة، وهي عارية تماماً. وظنّها امرأة من البشر، ومدت يدها نحوه. فمدّ يده إليها. فقهقهت المرأة واختفت، فيبست يد الرجل وما زالت.. وحدث أن رجلاً آخر رأى واحدة من الجماعة، وحدثته نفسه سوءاً بها، فقهقهت واختفت، «فتعقّد» الرجل مع زوجته، وما زال...».

فسألته كيف يتعقّد الرجل مع زوجته!

أجاب متبرّماً: «ما زلتَ ولداً، متى صرت رجلاً تفهم كيف يتعقّد الرجل مع زوجته».

ولم يكد وهبي يكمل حديثه حتى رأيته يجمد في مكانه، وكأنما كان يحاول، برهة، أن يقول شيئاً فخانه النطق. ثم تكابد وقال: «الله أكبر!» وما لبث أن استرجع أنفاسه وقال: «الحمد لله!».

وبما أنني كنت لا أزال ولداً لذلك سألت وهبي عمّا جرى، له، قال: «ألم ترَ؟ ألم تسمع؟ امرأة لا شك أنها من الجماعة، انتصبت فجأةً أمامنا، وهي عارية، كما خلقها الله، لكن الله أعانني فذكرت اسم الله، فاختفت المرأة في الحال».

ولعل وهبي اطمأنّ، آنذاك، مع تكرار ذكر اسم الله، ومدّ معي حديثاً، فسألني عن علاقتي بآل الددا، قلت: «انهم أصدقاء والدي المعلم يواكيم الراسي». ثم سألني عن علاقتي ببيت البستاني، فقلت أنهم كذلك من أصدقاء والدي الذي كان مديراً لمدرسة الفنون الأميركية في صيدا.

قال: «ولا بدّ، إذاً، أن يكون والدك المذكور حدّثك عن الخواجه فورد الأميركي، الذي كان صديقاً لآل الددا وللمعلم مخايل البستاني. ولا بدّ أن تكون قد عرفت أن الخواجه فورد جاء يفتش عن كنوز الملك سليمان في صيدا، وقيل إن الرجل يتعاطى السحر وله علاقة بالجنّ الذي ترافق وجوده مع وجود هذا الرجل الغريب في بلادنا».

وما لبثنا أن سمعنا، من بعيد، صوتاً كأنه ضرب مطارق. فوقف وهبي وقال: «الجماعة»! ثم استدار راجعاً. فتبعته مكرهاً، ورجوته عندئذٍ أن يأخذني إلى بيت الجوهري.

قال: «أما كان من الأفضل أن نذهب أولاً إلى بيت الجوهري، ولا نتعرّض لهزّة بدن كنا في غنى عنها».

وطرقنا باب بيت الحاج محي الدين الجوهري، حيث وجدنا سيداً تحفّ به مظاهر الوجاهة، ومعه رجال يشربون الاراكيل. فقدمني وهبي إليهم بقوله: «عبدالسلام ابن المعلم يواكيم الراسي». فوقف الجماعة إكراماً لذكر والدي ورحبوا بي، لكن وهبي كان قد تابع كلامه فروى كيف رأينا ـ هو وأنا ـ حسب ظنه، امرأة من نساء الجماعة، وهي عارية، عيونها زرق وأسنانها فرق، وأضاف: «وكان خوفي على عبد السلام أكثر من خوفي على نفسي، لأنه ما زال طرياً غير مجرّب. لكن الله أعانني فصرخت «الله أكبر!»، فتوارت المرأة مثل لمح البصر، وما لبثنا أن سمعنا شهيقاً وهي تهرول باتجاه مغاور طبلون».

فنادى السيد الجوهري، آنئذٍ، على مَن كان في الداخل، أن يأتوه «بالطاسة» من الخزانة، فأتوني بطاسة فيها ماء. فشربت. فراح السيد الجوهري يطيّب خاطري. ويسألني من حين إلى آخر عمّا إذا كنت ما زلت مرعوباً. ففهمت حينئذٍ أن الطاسة تلك لم تكن سوى ما يسمّى «طاسة الرعبة» التي يُسقى بها المرعوب، فيزول رعبه. ولأنني كنت «غير مجرّب»، كما قال وهبي، لذلك لذت بالصمت.

ثم وضع العشاء أمامي، فأكلنا، وهبي وأنا. ثم قال السيد الجوهري: «أرجو أن يكون هدأ روعك الآن، دارك هنا [illegible] فلا تخف شراً». وأخذني إلى غرفة داخلية فيها سرير [illegible] «أرجو الآن أن تنام نوماً هانئاً».

قبعت في السرير ورحت استعرض مجريات نهاري: المعلم وهبي يزعم أنه رأى الجنية. بل أكثر من ذلك، انه يجعلني شاهد زور على رؤية الجنية. لا لا كان يجب أن أصرخ في وجهه، أمام السيد الجوهري، «هذا كذب، هذا وهم، لا أنت رأيت الجنية ولا أنا..» وشعرت أن الجرعة التي شربتها من «طاسة الرعبة» صارت ناراً في أحشائي، فجفاني الكرى...

ولعل السيد الجوهري هو الآخر كان قد جفاه الكرى، خوفاً عليَّ أن تكون طاسة الرعبة لم تفعل فعلها بي كما يجب، وجاء، بعد هزيع من الليل، يستفقدني، فاستويت جالساً في السرير، وجلس إلى جانبي، وسألني: «قُلْ لي يا عبد السلام، كيف رأيت الجنية، وماذا شعرت لأول وهلة؟»

قلت: «لا أنا رأيت الجنية، ولا المعلم وهبي رآها، وكل ما حدث كان وهماً أشركني المعلم وهبي فيه، بدون إرادتي».

قال: «الجنّ، يا ابني، موجود في كل زمان ومكان، غير أننا لا نراه ولا نشعر به. وأكثر أخبار الجنّ ملفّقة. لكن ما لا ريب فيه أن بعض البسطاء يرون الجنّ بعين الوهم، كما حدث مع صاحبك المعلم وهبي، ولا سيما متى راجت إشاعات متكررة عن ظهور الجنّ، في مكان ما، فيصير المكان «مسكوناً» بالجنّ، والجنّ غير موجود إلا في أذهان البسطاء».

وأضاف السيد الجوهري فقال: «أما رواج أخبار الجنّ، في

هذا الوقت، بالذات، في صيدا، فتفسيره أن رجلاً أميركياً اسمه جورج فورد يُجري الآن حفريات، بحثاً عن الآثار، في محيط مدينة صيدا. ويقال إنه حظي بتحف ثمينة جداً يجري نقلها ليلاً في صناديق إلى البحر، حيث يتم تهريبها إلى أميركا. لذلك يروّج رجاله أخباراً ملفقة عن الجنّ الذي يخرج ليلاً من مغاور طبلون ويروّع الناس. فتقفر الطرق والمسالك بين موقع الحفريات ومكان تهريبها على الشاطىء. وهكذا يتم نقلها في غفلة عن عيون الناس الذين تشغلهم أخبار الجنّ عما يجري في الخفاء».

واستطرد السيد الجوهري فقال: «وستكون، غداً، آخر أخبار الجنّ، إن وهبي النعماني الصيداوي وشاباً غريباً اسمه عبد السلام، شاهدا إحدى جنيات مغاور طبلون.. وقد تتطوّر الإشاعة، بعد غد، حينما تعود أنت إلى قريتك، وينطفىء خبرك في صيدا، إن الجنية اختطفت شاباً اسمه عبد السلام ومضت به إلى مغاور طبلون.. ولله في خلقه شؤون».

الحَــكي للضّيف

كان الشيخ يوسف البعيني يُتقن آداب المجالسة ويُحسن اختيار الكلام لكل مقام. زرته يوماً في بيته، فرحّب بي أولاً وثانياً وثالثاً. . وسكت.

قلت: «تكلم يا شيخ يوسف!».

قال: «الكلام للضيف، لا للمضيف».

قلت: «وهل للكلام قوانين وأصول؟»

قال: أجل! وقد اختصرها رشيد بك نخله مع مقطع من الزجل، قال:

والضيف بدّك تكرمو، أعطيه مجال

بحكي . الحكي لضيف مهما الشرح طال

إلاَّ بـوقت الأكل. إحكي واتـركوْ

ياكل على مهلو. ولو طال المطال

إلاَّ بـوقت الأكل، إحكي واتـركو

وبـالـرأي والتـدبيـر لازم تشـركـو

ولا تجـادلو بـالأمـر حتى تـزركـو

ويفـارقك تعبـان من كتر الجـدال

وين بلدنا نروح، والبلدنا مسا والمنطي، شو بنقصو «عل وعي»
عل وعي شي جار، كنا نجاورو يجيرنا.. وجار الرضى ما يتيبي



لا نسيت جيرتنا، ولا تناسيت ... حتى علينا، بهالمسا، طَلّيت

أهلا وسهلا فيك ـ يا جار الرضا ـ ... نحنا الضيوف، وأنت ربّ البيت

أول مهاجِر لبناني إلى العَالم الجديد

في أيام حداثتي كان شيوخ قريتي إبل السقي يتحدثون، حول مواقد الشتاء، أحاديث متناقضة ومثيرة عن رجل سمه حنا مرقص، عاش قديماً في قريتنا، وكانت أخباره المعتقة تختلط مع حكايات أبي زيد الهلالي وذياب ابن غانم والشاطر حسن. حتى كان يخيل إلينا نحن أطفال ذلك الزمان أن حنا مرقص هو شخصية أسطورية تعيش في ذاكرة قريتنا وتحاك حولها الحكايات المسلّية.

وكل ما بقي في ذاكرتي عن الرجل أنه كان تاجر أيقونات ومسابح وصلبان من خشب الزيتون، يأتي بها من القدس وهي تحمل رائحة القداسة، ويجوب بها أرجاء المعمورة، وانه «ركب السبعة بحور»، وأنه زار أميركا مراراً حيث شاهد الفونغراف الذي كان أعظم وأدهش منجزات العقل البشري في ذلك الزمان[1]، فباع كل ما كان معه من بضاعة القدس

---

(١) كان توماس أديسون أول من أنجز اختراع فونوغراف عملي سنة ١٨٧٧ .

المقدسة واشترى بثمنها فونغرافاً رجع به إلى إبل السقي حيث توافد القوم للسلام عليه، وتسقط أخباره المثيرة.

وشد ما كانت دهشة القوم عندما وجدوا عنده صندوقاً صغيرا يغني ويتكلم كلاماً غريباً مريباً، قالوا لا بد إذاً، أن يكون الرجل قد تعلم فنون السحر وباع نفسه أخيراً إلى الشيطان. وها هو ذا الشيطان يتكلم من داخل الصندوق بلغة أهل جهنم.. واستنكروا بدعة الرجل وانكروه.

قيل إن الرجل ما لبث ان وُجد ميتاً في إحدى الليالي والصندوق السحري محطّماً، وسرت إشاعة تقول إن السحر انقلب على الساحر فخرج الشيطان من الصندوق وخنق الرجل، وقيل إن الملائكة انتقمت من الرجل وخنقته وحطّمت الصندوق وطردت الشيطان من قريتنا.. فهدأت الخواطر.

ولم يخطر في بال أحد من رجال القرية في ذلك الزمان، أن يجمع أخبار الرجل الذي ربما كان من روّاد المجاهل وله مكان في تاريخ لبنان. وكاد ذكر الرجل ان يمّحي، كذلك، من ذاكرتي، لو لم أحظ في كتاب «صفحات من لبنان» للصديق الباحث المتعمق جوزيف نعمة بكلام عن حنا مرقص أول مهاجر لبناني إلى العالم الجديد. يقول الأستاذ نعمة حرفياً:

«أول مهاجر إلى أميركا سنة ١٨٥١ هو حنا مرقص، والظاهر

أنه من فلسطين. وصل معرض شيكاغو سنة ١٨٥١ وكان يبيع المسابح والأيقونات والملابس العربية. ثم انطونيوس البشعلاني سنة ١٨٥٤ (عن مجلة المعرفة سنة ١٩٦٦).

فقلت، ولماذا لا يكون حنا مرقص هذا هو حنا مرقص إبل السقي، جوّاب الآفاق الذي خنقه الشيطان وتنكّر له تاريخ لبنان واعتبره من فلسطين فصار في خبر كان.

لكن مهلاً، فإن إبل السقي، مسقط رأس حنا مرقص، لم تكن في القرن الماضي من جبل لبنان، ولا من متصرفية جبل لبنان في ما بعد، بل من ولاية بيروت التي كانت تضم قسماً من فلسطين. وكانت وجهة أنظار أبناء الولاية تتجه جنوباً إلى القدس، حيث استقر بعضهم في خدمة الحجاج والسواح، وقد رأينا كثيرين من أحفادهم يعودون طالبين استعادة هويّاتهم اللبنانية الضائعة.

ألا يجوز والحالة هذه، ان يخطىء المؤرخون فينسبون حنا مرقص إلى فلسطين؟

وكل ما كان في استطاعتي ان أفعله الآن، هو أنني لفتُّ نظر القائمين على كتابة تاريخ الاغتراب اللبناني في جامعة اكسفورد، في إنكلترا، في شهر أيلول ١٩٨٩ إلى هذه المعلومات، غير المكتملة، تاركاً حنا مرقص في ذمة التاريخ.

ما حدا أحسن من حدا

بنى العثمانيون دعائم حكمهم في بلادنا على نظام الاقطاع السياسي العام، وعلى إقامة زعامة في كل قرية، لأن التعامل مع الفرد اسهل من التعامل مع الجماعة. ونجحوا في إيجاد مثل هذه الزعامة في كل مكان إلا في جديدة مرجعيون[1]، حيث «احترام الذات» عند الجميع جعل تفرّد رجل واحد بالزعامة أمراً عسيراً.

ويقول، الشيخ علي الزين ـ قليا البقاع ـ في أبناء الجديدة:

وأيُّ فتىً كابن الجديدة ترتقي
إلى العرب العرباء منه أصولُ
كريمٌ على الأضياف بالماء والقرى
ولكنْ «بماء الوجه» فهو بخيلُ

(١) امتازت جديدة مرجعيون بارتفاع نسبة المتعلمين فيها، ولا سيما الجامعيين منهم. وكان المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي، مطران مرجعيون الأرثوذكسي قد أعلن وفاة آخر رجل أُمّي في جديدة مرجعيون سنة ١٩٣٧. لكن الرجل ترك وراءه ثلاثة أبناء جامعيين.

كان حليم لحود أمين سرّ مستشارية مرجعيون الفرنسية في العقدين الثالث والرابع. ومن مروياته، في ما بعد، أن الحامية الفرنسية في مرجعيون، ارتأت، ربّما، بعد أحداث سنة ١٩٢٥ أن تضع يدها، مؤقتاً، ولأسباب أمنية، على الأملاك المحيطة. بمقرّ الحامية، وأن يكون ذلك بموافقة الجيران وأصحاب العقارات المجاورة.

وعليه دعا المستشار الفرنسي يومئذٍ الكابتن ماي (أو مور) أصحاب العلاقة إلى اجتماع وافقوا فيه، بدون تحفظ، على طلب الحامية، وتم تنظيم محضر بالواقع

ولدى قراءة المحضر، مع اسماء الموقعين عليه، وقف رجل اسمه فياض الحصان وصرخ بأعلى صوته: «لا لا ما حدا أحسن من حدا، أنا اسحب توقيعي!» وخرج الرجل بدون استئذان.

فظهر الامتقاع على وجه المستشار وطلب من حليم لحود تفسيراً عاجلاً لما حدث. فأجاب لحود: «كلمة «افندي» هي لقب عثماني شريف تبذّل بعد ما وصل إلى بلادنا، وصار من ألقاب الوجاهة وكبار العائلات وموظفي الدولة. والذي حدث الآن أن كاتب المحضر أعطى لقب أفندي لجميع الحاضرين، ما عدا هذا الرجل الذي احتجّ على عدم مساواته بالآخرين.

فهدأ غضب المستشار وقال: «أنا أفهم أن يحدث مثل هذا

الأمر في فرنسا حيث الفرنسيون ما زالوا يتنسَّمون مبادىء الثورة الفرنسية، أما أن يحدث هذا الأمر في هذه البلاد، وفي هذه البلدة بالذات، ويخرج رجل «غير افندي» على إرادة عشرين افندي من مواطنيه، صارخاً في وجوههم «ما حدا أحسن من حدا؟»، وعلى مسامعي أنا، ومَن أمثل في هذه البلاد، فهو أمر يدعو إلى الإعجاب».

أهل الكرامة لهم علامة

اشتهر العلامة السيد محسن الأمين بلقب «المجتهد الأكبر» وكان معروفاً ومحترماً من الجميع حيث عاش أكثر أيام حياته في دمشق.

وحدث يوماً أنه مرّ ببائع مسابح وتناول مسبحة منها وسأل البائع عن ثمنها.

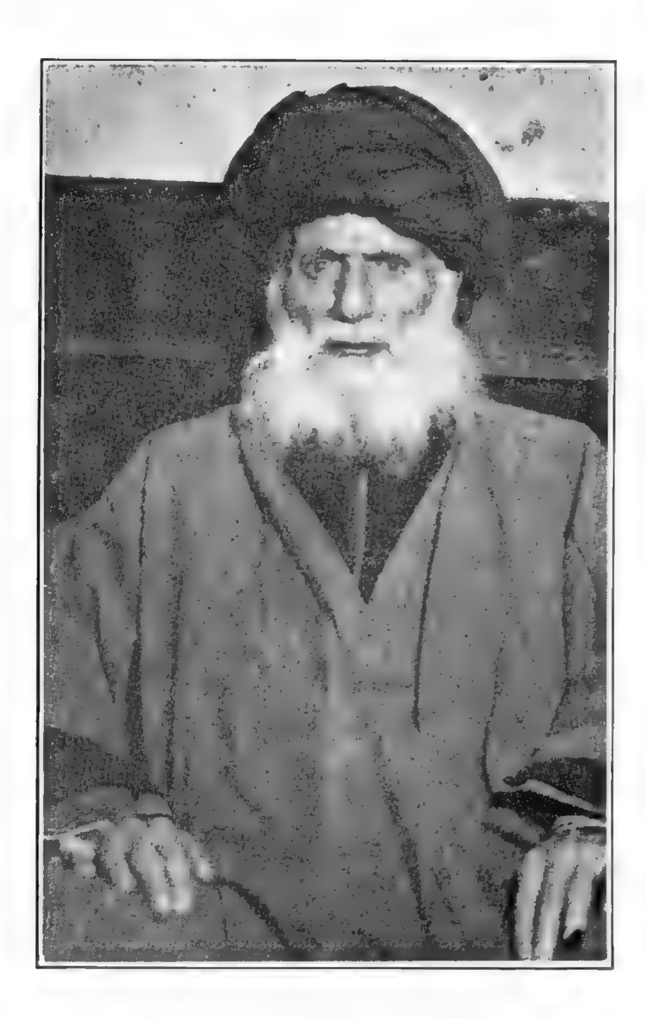
قال البائع: «ثمنها ليرة واحدة.. لكنها ليست من مقامك يا سيد محسن، فأنت عالم ثمين رفيع القدر...»

وتناول البائع، من خزانة وراء ظهره، مسبحة ثمينة، وعرضها على السيد محسن وقال: «هذه المسبحة من مقامك وتليق بشأنك يا سيدي».

فسأله، السيد: «وكم هو ثمنها؟»

قال: «ثمنها مئة ليرة».

قال السيد: «أرجع هذه المسبحة الثمينة إلى خزانتك، حتى يأتيك رجل رخيص القدر لا يزيد ثمنه عن ليرة واحدة،



فيشتريها ويصير ثمنه مع المسبحة مئة ليرة وليرة. أما أنا، فكما تقول، رجل ثمين ولا حاجة لي إلى زيادة ثمني بمسبحة ثمنها مئة ليرة».

.. إذا متنا بعثنا

كان جورج صعب رجل أعمال ناجحاً وكان له حضور مشكور في مجالس الرجال. ولم يكن اهتمامه بدنياه يصرفه عن الاهتمام بالثقافة ومتابعة نشاطات الفكر. ثم فجعه القدر بابنه الوحيد، ثم بزوجته.. فانقطع.

كان جاري وكنت أزوره غالباً في وحدته، لا لكي نتآسى بل لكي نتحادث ونتناسى، فأُبادر بسؤال يوجب تشغيل الذاكرة وإمعان النظر، لكي لا ينقطع الرجل عن التفكير في الحياة خوفاً من الموت.

وكأنه أدرك غايتي يوماً، وفهم مرامي، فقال: «إننا في الواقع لا نخاف الموت، بل ما بعد الموت». وذكر أن بيتين من الشعر القديم علقا في ذهنه وهما لا ينفكّان يتدافعان بين عقله ولسانه، وأنشد يقول:

ولو أنّا إذ مُتنا تُركنا
لكان الموت راحة كلِّ حيٍّ
ولكنّا إذا متنا بُعثنا
ونُسأل بعد ذا عن كلِّ شيٍّ

نَيل المَرام في المنَام

كانت جارتنا أم سرور، سامحها الله، تزورنا أربع مرات في النهار القصير، لتسألني، مثلاً، عما إذا كان صياح الدجاجة مثل الديك في الصباح، يعني أن المولود في ذلك النهار هو بنت لا صبي. ثم تأتي قبيل الظهر لتسألني عما إذا كان الحذاء المقلوب يردّ «صيبة العين». وتأتي عند العصر لتأخذ رأيي عما يقال لمن يعطس في المأتم. ولا تلبث أن تعود في المساء لتقول إنها سمعت طنيناً في أذنها اليمنى ولا بد أن تكون إذاً، جارتها ام جميل تتكلم في حقها بالسوء.

وكنت لا أفتأ أرحب بها لأنها كانت تأتيني دائماً بما هو جديد وطريف ومثير للتفكير.

وجاءتني ذات صباح باكر وهي مذعورة وقالت: «أحلامي تعذبني يا جار! فما أن أغفو في فراشي حتى تتراكم عليّ الأحلام المزعجة، فأبقى طوال يومي معوكرة ومشوشرة».

فسألتها عما رأت أمس في منامها حتى تعوكرت وتشوشرت.

قالت: «رأيت في منامي شاباً جميلاً أنيقاً يمر أمام بيتنا ولا يلتفت ويذهب لعند أم سويدان، وبنت أم سويدان ليست أجمل ولا أعقل من بنتي...».

فسَوبقت عليها وقلت: «أبداً! ولا سيما أن بنتك هي بنت أم سرور الشريفة العفيفة اللطيفة النظيفة».

وبعدما طيّبت خاطر ام سرور تبرعت لها بنصيحة، قلت: «الأحلام هي بنات الهواجس، وعليكِ أن تهجسي بالخير فتجديه.. فكري يا ام سرور. قبل النوم، بما يسرّ خاطرك، فتجدي ما يسرّ خاطرك في منامك حتى ولو كان ما يسرّ خاطرك بعيد المنال في اليقظة فقد يصير قريب المنال في المنام.. جرّبي تفرحي!».

وقبل أن تبزغ شمس النهار التالي دخلت أم سرور والفرح يغمر وجهها وقالت: «جرّبت وفرحت.. يا مكثور الخير نصحتني فنفعتني.. استلقيت في فراشي عند المساء، وأغمضت أجفاني وهجست. هل تعلم بمَن هجست؟»

وقبل أن أسألها بمَن هجست، قلت لا بد أن تكون ام سرور هجست بعريس لابنتها يكون ملء العين والخاطر، لكنها استطردت وقالت: «هجست بجارنا أبو مرهج».

فقلت بيني وبين نفسي فليسامحني الله! ماذا تراني فعلت ولو عن حسن نية. بهذه الجارة الطيبة القلب الحسنة النية، إنها

هجست بجارها أبي مرهج، وأبو مرهج رجل خمسيني متزوج وعنده خمسة أولاد.

وتابعت المرأة كلامها، قالت: «أغمضت أجفاني ورحت أتخايل جارنا أبو مرهج، بقامته الطويلة وجبهته العريضة وشاربيه المعقوفين وعباءته المقصّبة...».

في نفس الوقت كنت أنا أتابع هواجسي، قلت، ام سرور ترمّلت باكراً، لكنها احتشمت وصانت سمعتها وكرامتها، فهل تراها تجرَّأت الآن على التفكير برجل مثل أبي مرهج، حتى ولو في المنام! وأبو مرهج رجل ولا كالرجال، قامة وهيبة ومهابة وجمال.

ومضت أم سرور في تقديم فذلكة منامها والانشراح بادٍ على تقاسيم وجهها، قالت: «هل تصدّق أنني ما إن غفوت حتى رأيت أبامرهج في المنام كما لو كان في اليقظة...»

ومضيت أنا في تفسير هاجسي بيني وبين نفسي، قلت، ام سرور امرأة، مثل كل امرأة، ومن حقّها ان تفكر برجل، ولا سيما أنها أرملة. وأي خطيئة تراها اقترفت، إذا فكرت ثم رأت في منامها ما لا يليق بها أن تفعله في يقظتها. غداً سأستفتي أحد كبار رجال الدين في قضية ام سرور، لعل ما يشتهيه المرء في اليقظة ويبتغيه في المنام هو حلال، لا حرام. ولعل ام سرور جاءت الآن تكشف لي سريرتها لعلّي أجد لها تبريراً لحقّ أباه عليها المجتمع.

ورأيت أم سرور تترحرح أخيراً في مجلسها وتقول: «ورأيت أبا مرهج يمشي على حافة سطح بيته، لكنه ما لبث أن تفركش وسقط عن السطح ومات في الحال. . . ورأيت بعينيَّ الاثنتين أم مرهج وهي تبكي فوق رأسه. . .».

فصرخت: «يا ويلك من الله! أنت إذاً، مسرورة بموت جارك أبي مرهج، لا بشيء آخر!»

قالت: «معلوم! لكي تصير ام مرهج أرملة مثلي، وما حدا أحسن من حدا».

صَدِّق! أولاتصـدِّق!

كان الدكتور حبيب اسطفان[1] أشهر الخطباء العرب في أميركا، حتى وفاته سنة ١٩٤٦، وكانت له ذاكرة عجيبة غريبة، فقد دُعي. مرةً، إلى إلقاء خطبة في احتفال دُعي إليه كذلك الشاعر رشيد أيّوب الذي استحسن ان يُطلع حبيب اسطفان على قصيدته التي أعدّها للمناسبة.

وكان دور حبيب اسطفان، في الكلام، قبل دور رشيد أيوب، وإذا بحبيب اسطفان يلقي قصيدة الشاعر رشيد أيوب، حرفيّاً، وبدون أي نقص أو التباس.

وفوجىء رشيد أيوب بما سمع. ونهض وانسحب ممتعضاً، لأن حبيب اسطفان انتحل قصيدته ولم يترك له ما يقول في الاحتفال.

غير إن حبيب اسطفان ما إن انتهى من إلقاء القصيدة المنتحلة، حتى أعلن الحقيقة وقال إنه سمعها مرّةً واحدة من

(١) بدأ الدكتور حبيب اسطفان حياته راهباً. ثم خلع ثوب الكهنوت والتحق بالملك فيصل الأول. وعندما انهار حكم فيصل في دمشق سنة ١٩٢٠ هاجر إلى أميركا.

ناظمها واستظهرها. . فاستهجن البعض وأنكر آخرون إمكانية حفظ القصيدة، غيباً، بمجرّد سماعها مرّةً واحدة قبل افتتاح الاحتفال، ولا سيما أن الشاعر رشيد أيوب كان قد توارى في تلك الساعة.

وأضاف حبيب اسطفان وقال: «صَدّقوني أنني أجهل رقم هاتفي ورقم سيارتي، كما انني أُخطىء في معرفة أسماء أكثر الأصدقاء، وأنسى، بسرعة، كل ما يقال في موضوع المال وسوء الحال وتربية العيال. . والقيل والقال. بيد أنني أحفظ، بسرعة، كل كلمة تقال فيها حكمة وبلاغة وجمال، وأرجو أن يتأكد الصديق الشاعر رشيد أيوب أن قصيدته هي أبلغ ما يمكن أن يقال في هذا الاحتفال، ولو لم تكن قصيدته كذلك، لما علق منها بيت واحد في ذاكرتي».

ويروي مغترب لبناني من شهود عيان هذه الواقعة، انه سأل الارشمندريت انطونيوس بشير، من كبار رجال الفكر، عما إذا كان يصدق ـ أو لا يصدق ـ أن ذاكرة حبيب اسطفان خارقة إلى هذا المستوى.

أجاب الأرشمندريت بشير: «أنا أعتقد أن كل كلام فيه بلاغة خارقة يرسخ بسرعة في كل ذاكرة خارقة، وإلاّ فكيف نُفسّر بقاء كلام الله، بألسنة أنبيائه، لو لم تكن هنالك ذاكرة خارقة تعي وتحفظ وتنقل أقوال الأنبياء التي تعلمناها وقبلناها دون أي ريب بصحتها».

الشِّعْرُ المفتوتُ في مَديحِ العَنكبوت

إذا رأيت ثوراً لا تقل: «هذا بقرة». لأن الثور شيء والبقرة شيء آخر. وقياساً على ذلك، إذا رأيت إحدى العناكب «جمع عنكبوت» في سقف بيتك، عليك أولاً، ان تتأكد ما إذا كانت ذكراً أم أنثى، فإذا كانت ذكراً، قل: «هذا خَدَرْنق»، لأن الخدرنق هو ذكر العنكبوت.

إلى هنا أعانني الله وأنا أقرأ هذا المقطع من رسالة بعث بها إليَّ الصديق فاضل عسكر، من موسكو، الذي ما لبث أن طلب مني ـ سامحه الله. ان أُفيده كيف يستطيع ان يميّز ذكر العنكبوت من أُنثاه، لأن إحدى العناكب ما فتئت تسرح وتمرح في سقف غرفته، ماضية في بناء بيتها بلا كلل أو ملل، وهو لذلك يريد أن يمدحها بقصيدة، في شكل أرجوزة، متى عرف جنسها، ليعرف كيف تصح مخاطبتها.

ثم يتلطف صاحب الرسالة ويذكر لي على سبيل المعلومية ان الشبهم هو ذكر القنفذ. والعنظب هو ذكر الجراد. والحربش هو ولد الحية. والهجرس هو ولد الثعلب. والضغيب هو

صوت الأرنب. والأفحوص هو بيت القطاة. والخوقع هو ولد الذباب. والقهقاع هو صوت الدب. وإن ام قشعم هي الضبع. كفاك الله شرّها.

* * *

لنا صديق تشغله عجائب اللغة وهو يقول إن كل حرف من لغتنا له صوت. وكل صوت له معنى. وعليه تكون أسماء الصفات المنتهية بحرف اللام لها نفس الدلالة تقريباً، مثل: كَسَل. فَشَل. وجل. ملل. شلل. دجل. خلل. زغل. زعل. بدل[1]. خبل. هبل. خطل. زلل. بلل. انتهاءً بكلمة «جدل». والجدل هو شر النوائب، ويقول الخليفة عمر بن الخطاب:

«إذا أراد الله بقومٍ سوءاً منحهم الجدل ومنعهم العمل».

---

(١) البدل في اللغة هو مرض التهاب المفاصل. ويُحكى ان الجاحظ كان يشكو من البدل الذي استعصى على وسائل المعالجة، فقيل له: «آخر دواء الكي!» فقال: «ربَّ بدلٍ شرُّ من بدل!»
أي، ربَّ علاج بديل لالتهاب المفاصل أسوأ من التهاب المفاصل.
وجرى جواب الجاحظ مجرى الأمثال.

عَمياء بَصيرة

كانت المدعوة سليمة الحداد عمياء منذ ولادتها، لكن عماها لم يحجب نور فطنتها. جاءت يوماً تطلب مني أن أساعدها في تفسير منامها، قالت: «رأيت في منامي ذئباً يقف أمامي، ثم رأيت خروفاً يأتي ويقف إلى جانب الذئب، ثم رأيت طفلاً يأتي ويقف أمام الذئب والخروف...».

فقلت معترضاً: «ولكنك ضريرة منذ ولادتك، كما تقولين، ولم يسبق لك أن رأيتِ، في يقظتك ذئباً وخروفاً وطفلاً، فبأي صورة، وبأي شكل، وبأي حجم استعطتِ أن تري الذئب والخروف والطفل في منامك؟»

قالت: «أنا عمياء فعلاً، لكنني لا أعيش في عزلة عن الأشياء، كما تظن، لأنني أعيش مع الناس وأسمعهم يتحدثون عن الأشياء، واستطيع أن أرسم في ذهني صُوُراً عنها، حتى إذا رأيت هذه الأشياء في منامي، بدت لي في أشكالها وأحجامها المرسومة لها في ذهني».

ثم قالت: «وعليه، إذا فكرت أنا الان. بالبشاعة مثلاً،

تخايلت وجه جارتي أم شحادة، وإذا أردت أن أتكلم عن الجمال بدت لي جارتي الأخرى ام سامي. وقد تكون رؤيتي للناس، بناءً على «مسموعياتهم»، صادقة في أغلب الأحيان».

قلت: «هنيئاً لكِ عماك! يا سليمة، لأنكِ ترين المرأة الفاضلة جميلة، والمرأة العاطلة قبيحة.. إنك ترين الأشياء كما كان يجب أن تكون، لا كما هي كائنة الآن، بحكم تناقض الأشياء مع حقائقها. وإنه لمما يُحيّرنا نحن معشر المبصرين، ان نرى صفات أكثر الناس لا تتفق مع سمات وجوههم.

وقديماً قال أبو العلاء المعري، أشهر أعمى في تاريخ العرب، في وصف الناس:

كرهتُ منظرهم، من سوء مخبرهم
لذا تعاميتُ حتى لا أرى أحدا

مصباح ابن الفارض

اشتهر الدكتور أديب رحال صاحب مجلة المرج المرجعيونية - في الثلاثينات - بثقافته الأدبية وبعلاقاته الحميمة بعلماء الشيعة في جبل عامل. وحدث انه اصطحبني، يوماً، بزيارة إلى الشيخ عبد الحسين صادق، في النبطية، وهو يومذاك، أكبر مراجع الشيعة في البلاد. وما ان استقر بنا المقام حتى دخل الشيخ أحمد رضا أحد علماء ذلك الزمان وفاجأ الشيخ عبد الحسين بسؤال، قال: «هل الحجاب فرض شرعي على المرأة السوداء (العبدة)، أم أنها معفية منه بسبب سواد وجهها؟».

قال الشيخ عبد الحسين: «ولماذا هذا السؤال، وفي هذا الوقت بالذات؟».

قال الشيخ أحمد: «قرأت أبياتاً لك تقول فيها عن الشرع الإسلامي:

أعظمْ بشارع ديننا — من مصلح حال العبادِ
شرع الحجاب على النساء — لحاضر منها وبادِ
حفظاً لبيض وجوههنَّ — من التشوّه بالسوادِ»

قال الشيخ عبد الحسين إن البياض والسواد هما صفتان معنويتان، فالبياض والجمال صنوان، كذلك القبح والسواد. وقد كان بعض العرب، قديماً، يخاطبون الله تعالى بقولهم له «يا أبيض الوجه!» كما كانوا يصفون الشيطان بالسواد. وليس الحجاب إلا وسيلة لحفظ شرف المرأة من التلوّث بالرذيلة، وقديماً كانت المرأة المرذولة تُشحّر وجهها، حتى لا يُشحّر ذووها وجوههم بالعار، بسببها، ولذلك يقال عن امرأة أساءَت الأدب، انها سوّدت وجه ذويها.

وجرى نقاشٌ، بعدئذٍ، بين الشيخين، حول ما إذا كان الحجاب أصيلاً أم دخيلا في الشرع الإسلامي، وانتهى النقاش بتحكيم الدكتور أديب في ما بينهما.

قال الدكتور أديب: «إنني أحترم رأي كلٍ من الشيخين الجليلين، لكنني، شخصيّاً أدين بدين الشاعر ابن الفارض الذي قال:

أَوميضُ برقٍ في الأُبيرقِ لاحا
ام في ربى نجدٍ أرى مصباحا
أم تلك ليلى العامرية أسفرت
ليلاً فصيرت المساء صباحا»

إشلح صبَاطَك برّا

نشطت الإرساليات التبشيرية الأميركية في بلادنا قبيل منتصف القرن الماضي وأسست مراكز ومدارس لها في أكثر المدن والقرى، وأخذ المرسلون الأميركيون يجوبون القرى داعين فتيان ذلك الزمان إلى طلب العلم في مدارسهم، واعتناق المذهب الانجيلي تالياً في كنائسهم.

وكانت التقاليد، في ذلك الزمان، توجب على الرجل، في بلادنا ان يخلع حذاءه قبل دخول المنزل، في مكان منخفض وراء الباب يُسمى «الجيّازة»، وان يلتزم بطربوش أو عمامة أو عقال على رأسه، لأن غطاء الرأس كان من مظاهر الكرامة.

أما المرسل الأميركي فكان، حينما يدخل أحد البيوت، يخلع قبعته عن رأسه ويحتفظ بنعليه في رجليه، فيثير استهجان المواطنين الذين ما لبثوا أن شعروا ان المبشرين الأميركيين لا مستقبل لهم في بلادنا ما داموا غير قادرين على تفهم أبسط التقاليد المحلية.

وجاء المرسل الأميركي «مستر دولتل» يوماً إلى قرية بلاط -

مرجعيون ودخل منتعلاً حذاءه إلى بيت فارس صبحيه، أول مَن اعتنق المذهب الانجيلي في القرية، وكانت راحيل زوجة الرجل تحرص عَلى نظافة بيتها، فغضبت وهددت زوجها الذي كانَ من شعراء الزجل، فوصف واقعة الحال. قال:

إشلح صباطك بَرًّا وراحيل اكفيني شرًّا
يما بتبقى يا دولتل أنت وصباطك بَرًّا

لاتوصِ حريصًا

كان نسيب غبريل، نائب جنوب لبنان سابقاً، ينتقد سياسة الدولة اللبنانية في الإنفاق والتبذير. ويضرب لنا مثلاً، قال:

يُحكى أن رجلاً حج بيت الله الحرام على ظهر حمار وفي كمره مئة دينار، فاشترى عباءة تليق بوقاره، وبردعة جديدة لحماره. كما اشترى قارورة مسك عطر بها جسده وثيابه وشيئاً من عود الند ضمّخ به منافسه، مع بعض الحنّاء خضّب به لحيته وشاربيه.. بالإضافة إلى أشياء أخرى عطف عليها ولم يكن في حاجة إليها. وقفل راجعاً إلى بلاده.

ثم ما لبث أن اكتشف أن ما بقي في كمره لا يكفي لشراء ما يحتاج إليه من طعام وشراب في سفره، وارتأى أخيراً أن يبيع مشترياته فلم يُقبل أحد على شرائها منه، واضطر أخيراً إلى أن يبيع الحمار، ليدرأ بثمنه غائلة الجوع، بحكم الاضطرار.

ورجع الرجل ماشياً على قدميه وقد أضناه التعب والسغب

أخيراً، وشعر بدنو أجله، فأوصى ان يُدفن في قبر على طريق الحجّ يكتب على رتاج بابه:

من يشترِ ما لا يحتاج إليه، يضطر إلى بيع ما يحتاج إليه.

"كتَبت حَسَب عَقلي"

مات سليمان البستاني الذي كان وزيرا في الآستانة في عهد بني عثمان، سنة **١٩٢٥** عن سبعين عاماً، وعن كتاب واحد لا غير هو «الياذة هوميرس» الذي نقل فيه أشعار هوميرس عن اليونانية إلى العربية، والذي يضم خمسة آلاف بيت من الشعر في **٢٢٦٠** صفحة استغرق تعريبها سبعة عشر عاماً، مع مقدمة جاءت نموذجاً رائعاً للدراسات الأدبية، ولا سيما دراسة أدب المقارنة، وذلك بإتقان أثار إعجاب أدباء وشعراء زمانه.

قيل إن أحد النقاد سأله: «ولماذا قصرت همك على كتاب واحد، ما دامت عندك هذه الموهبة الخارقة؟»

أجاب سليمان البستاني: «أنا كتبت حسب عقلي، فأنجزت كتاباً واحداً، ولو أردت أن أكتب حسب جهلي، لتركت ورائي خمسين كتاباً».

حِكمَـةَ الكِـتاب

عَوّدت قرائي أن أختم كل كتاب من كتبي المنشورة سابقاً، بمأثورة أجعلها «حكمة الكتاب»، حتى متى فرغوا من قراءته، بقيت حكمته في أذهانهم.. وعلى ألسنتهم.

* * *

تردّدت على لندن مثقلاً بالأمراض والمتاعب، فبالإضافة إلى سوء الهضم وانسداد الشرايين والتهاب المفاصل، كنت أنـوء ببعض الهموم والمشـاغل، بيـد أنني، بحكم ثقافتي الشعبية كنت أتأبط أمثالي وحكاياتي أينما توجهت.

وبعدما عاينني الدكتور «أبهل» لمعرفة أسباب سوء الهضم وكيفية معالجتها واسترسل في تقديم النصائح والارشـادات لجهة تنويع الطعام وتقليله، قاطعته قائلاً: «عندنا، في بلادنا، مثل يقول:

«قَلِّل طعـامك تـأمن سقامـك!.. قَلِّل كـلامـك تحفظ مقامك!».

فاستعاد الدكتور أبهل معنى المثل وقال إن مداواة عسر الهضم أيسر من مداواة عسر الفهم، وإن ضحايا عسر الفهم أكثر من ضحايا عسر الهضم، وأضاف إن المفكر الفرنسي «فولتر» يقول:

«الغريب أن ضعف المعدة يُضعف عمـل العقل، لكن الأغرب من ذلك أن أصحاب المِعَد القوية ليسوا، بالضرورة، سليمي التفكير».

* * *

أما الدكتور «بالكون» طبيب الشرايين فقد راح يشرح لي أهمية الرياضة البدنية، ولا سيما رياضة المشي، منذ الصغر حتى نهاية العمر، وتأثيرها في تنشيط الدورة الدموية وعلاقة كل ذلك بأمراض انسداد الشرايين، فعاجلته بالقول: «عندنا، في بلادنا، حكمة شعبية تقول:

«الإنسان يموت، إمـا مُهترئـاً من كثرة الاستعمـال، أو «مُصدّياً» من قلة الاستعمال».

فقال الدكتور: «كم هو أفضل أن يموت الإنسان مهترئاً من كثرة الاستعمال، لأن مَن تصدأ شرايينه من قلة الاستعمال يَمتْ قبل أوانه».

* * *

أما الدكتور «بارنز»، وهو من أشهر أطباء المفاصل في لندن، فقد شكوت إليه أوجاع ظهري المزمنة، ووضعت أمامه

بعض التقارير الطبية التي حملتها معي من بيروت، فألقى عليها نظرة سريعة وقال: «أنت، إذاً، من لبنان!».

قلت: «أجل!»

قال: «ولعلك تحمل معك هموم لبنان إلى لندن!».

قلت: «وهل يستطيع رجل مثلي ان يطرح عن كاهله هموم لبنان الثقيلة، من حرب ونهب وتهجير وتخريب وغير ذلك!».

قال: «ولعل الهموم هي أثقل الأحمال على كواهل الرجال، والتي قد تنوء بها في بعض الأحيان».

فقلت: «تصديقاً لكلامك، أنا من قرية في جنوب لبنان، وأذكر أن القرويين في قريتي عندهم مثل شعبي يقول:

«وجع الظهر: تِلتو ختيرْ.. وتلتينو قهر!».

قال: «هذا مثل بليغ جداً، فالقرويون يعرفون أحياناً، بالاختبار، ما لا يعرفه الطبيب في المختبر، وهم يُعبّرون بالأفعال، عن خبرتهم في الحياة».

وبدا لي آنئذٍ، ان الطبيب قد ينصرف عن معالجة وجعي إلى معالجة مثلي الذي حاول ترتيبه بلغة إنكليزية سليمة بحيث تنسجم موسيقاه مع معناه، فقلت: «وأريد يا دكتور، ان أسألك أيضاً عن علاقة القهر «بالقرحة» اللعينة التي لا تصيب غير المقهورين من المفكرين».

قال: «لا أعرف». قلت: «لعلك أول طبيب يعترف أنه لا يعرف».

قال: «أنت الآن، زوّدتني بمثل لبناني قد أحتاج إليه في تفسير علاقة القهر بوجع الظهر، وأنا سأزوّدك، الآن، بمثل إنكليزي لا يشفي من القهر، لكنه يشفي من الجهل، ومرض الجهل أشد فتكاً من مرض القهر. يقول المثل الإنكليزي:

«أَنْ تجهل أمراً، ليس عيباً.. العيب أَن تدّعي معرفة ما تجهل!»

* * *

منذئذٍ صرت أشعر بوطأة مرض الجهل، بالإضافة إلى مرض القهر ولا أخجل من الاعتراف بكلا المرضين.

هذه حكمتي الأخيرة إلى قرائي، ومَن ساواك بنفسه ما ظلمك!

لفت انتباه

ان بعض محتويات هذا الكتاب هي مما وعته ذاكرتي عن ألسنة رواة المأثورات والمرويات وهي لا بد ان تتحمل بعض التأويل أو التعديل في انتقالها على شفاه الناس، وقد كتبتها وأنا خارج لبنان، دون أن يتسنى لي التأكد من صحة بعض الأسماء والتواريخ والأماكن المذكورة في الكتاب. لذلك ترجى المعذرة في حال وجود أي خطأ عن حسن نية.

شكر

الشكر للمجلس الوطني لإنماء السياحة ولجريدة النهار والحوادث والصياد والمقاصد والتضامن والوطن العربي والكفاح العربي ودار المسيرة وسائر الجرائد والأصدقاء الذين قدموا لي الصور المنشورة في هذا الكتاب.

فهرس

الباب الثاني
قراءات في وجوه الناس

الباب الثالث
الجنة بلا ناس، ما بتنداس

الباب الرابع
من راقب الناس.. زاد فهماً

كتب للمؤلف

- لئلا تضيع
- في الزوايا خبايا
- حكي قرايا وحكي سرايا
- شيح بريح
- الناس بالناس
- حيص بيص
- الحبل على الجرّار